

دكتورة بنت الشاطئ

أم الفصح

عليه الصلاة والسلام

دار الهلال

0193518



Bibliotheca Alexandrina

اهداءات ٢٠٢٢

مكتبة

ا.د محمد الحميد بدوي

القاضي محكمة العدل الدولية

أم النج

عليه الصلاة والسلام

تأليف

الدكتور عائشة عبد الرحمن

«بنت الشاطئ»

أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث
جامعة القرويين بالمغرب

دار الهلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ »

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

مناجاة

أما « آمنة » ..

ما تلوتُ من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن
بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا »

إلا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذى حملته جنينا ،
ووضعتِه كما تضع كل أثى من البشر ..

ولا تدبرتُ معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى إليهم »

الا تنبته الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التى أنجبت
البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى قامت عن «عيسى بن مريم»
كلمة الله التى ألقاها الى العذراء المصطفاة ، وهى التى جاءت « بمحمد »
رسول الله وخاتم النبيين ، عليه الصلاة والسلام .

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر كبرياء الأباطرة
والملوك ، ويسمو بأموستك الى أفق لا يتناول اليه ترف الغنى ولا جاه
السلطان ، اذ يجعل منك أيتها الأثى الوديدة المتواضعة ، والأم الطيبة
الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله
واعترازه ..

يا أم المصطفى ..

هو أبدا مجد الأمومة الذى خلّد واهباتِ الحياة على الدهر ،

وصانعات التاريخ منذ الأزل وإلى الأبد ، فأى عز للأُمومة فيك ، وراء
كلمة وحيدك المصطفى :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبداً فخر الأنوثة التى حَمَت سر الوجود فى هذا الكون ،
وحفظت حياة الإنسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت أجنة البشرية وهنا على
وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين قال لمن سأله عن أحق
الناس بإكرامه : أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم .. أباك ؟!
وحين جاءه أحد اصحابه يبتغى ان يخرج مجاهداً معه ابتغاء وجه الله
واليوم الآخر ، فلما عرف الرسول أن أمه حية ، قال له : ويحك ! الزم
رجلكما فثمَّ الجنة ؟!

ياسيدة الأمهات ..

عن مجد الأمومة فيك ، أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت
على الإنسانية بوليد وحيد ، حملت الملايين لواءه فى أرجاء الأرض على
مرَّ الزمن ..

يتيم ، اعتر به الآباء الصيد والأصولُ الأمجاد ..

فقير ، حييت باسمه الدثنى وفاضت الخيرات

أُمى ، علَّم الناس الكتاب والحكمة ، وقادهم من الظلمات إلى
النور ..

وأى عمل لك يا سيدة الأمهات ، أجل وأمجد ، من أنكِ كنتِ المنجبة
لهذا المصطفى الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ..؟

وهأنذى أقف خاشعة أمام سيرتك ، وقد حفَّت بها من أمومتك أضواء
باهرة السنا ، فيكاد جلالك يشينى عن اطالة النظر اليك ، والحديث عنك ،
لولا أن أعود فأذكر أنكِ أم «محمد» الذى أصرَّ على الاعتراف بشريته ،
فكان هذا الاعتراف منه ، آيةَ عظمتك وسر خلودك !

سيرة الأمهات

- هذه السيرة ومصادرها
- أنوثة وأمومة ..
- أمهات الأنبياء ..

هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة في درس سيرة « السيدة آمنة » وأنا أعى أتم الوعى ، نقص المصادر والأخبار التى تحدثت عن تلك الأم المنجبة ، لكنى قدرت انى انما أحدثت عن والدته خير البشر ، وأم المصطفى الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى غذاه دمها ، واتصلت بحياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » ، فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق أمومتها لولدها العظيم .

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلاهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتر بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام ، ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار وقوله :

« أنا ابن العواتك من سُلَيْم »

ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء « آمنة » وأجدادها نساء ورجالا ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الاصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفت دنياها ، وصنعها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت في عروقها دماء أصولها الأولى ، ونمتها العوامل التي تركت طابعها الخاص في كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان .

أجل هي ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصلية الممتدة في أعماق منبتها وأعراق آلهها ، وأن يستبين ملامحها وسماتها في الهواء الذي تنفسته والجو الذي عاشت فيه ، فإذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغته ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذي أصرَّ على الإقرار بشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف إليها ما يشذ بها عن سنة الله التي فطر الناس عليها ، أو أن تلوَّن شخصيتها بما يجعل ولدها كائناً عجيباً لم ينمِ عرق ، ولا أمدَّه أصل ، ولا غذَّته وراثته ، ولا نهضت به بيئة ..



على أنى حين مضيت في تتبع الأصول البعيدة الآمنة ، ولمح المعالم الواضحة لدنياها ، ألفت إلى جانب ما يطمئن إليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشداً من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هي من واديه .. آثار يحرص كثير من الدارسين المحدثين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع . وفاتهم أن ينتبهوا إلى دلالتها الاجتماعية التي لا تكذب ، والتي تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادى من عالم نفسى ، وتكمل ما تركه الأخبار من ثغرات في فهم طبيعة المجتمع تلك الآثار ، هي ما خلفه لنا قوم رأوا في السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم المحبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا في ذلك ولا وهموا ..

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى ، وراء دنيا الوجدان ، وبعيدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والایمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل

والواقع ، أو يقال هناك بلسان العاطفة والايمان ..
وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا يجوران على صواب ، ولا يتكتمان بكذب : فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستلهما البيئة والوراثة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الوثائق ما قال ، بالهام الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى تقديره ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لايسىء الى الواقع التاريخى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يتحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد ، مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ..



وأحسبني بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايى البالغة بكل ما قيل عن « السيدة آمنة » ، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بمرويات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيحجم ، أو يسمعها المؤرخ بأذن التحقيق فيبرم ، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم النبى » كما شاءت قلوبهم المؤمنة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وتأملاتهم الروحية وطاقتهم التعبيرية . فقدموا لنا بذلك كله ، صورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه .

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم ، من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها

اليها ، وكيف تَمَثَّلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها مع الزمن ، وسارت على الأجيال .

فأبناء « آمنة » في زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها - تلك الأنباء التي يحسبها بعض المحدثين من أساطير الأولين - تصور للمؤرخ حياة هذه الأم في نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه يعرف تحليلهم النفسي لشخصيتها .. وأتسى لمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما يعاني من تاريخ محقق ؟ ..



وأراني الآن قادرة على أن أبسط منهجي في فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارئ لفهم هذا المنهج :

لقد بدأت أول مابدأت بدرس بيتنها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملاحم العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخي في حياة « آمنة بنت وهب » .

وثاني الأمرين مما عمدت اليه في هذه السيرة ، هو ما يحلو لكثير من الدارسين - وبخاصة الأجانب - أن يسموه مناقب وأقاصيص ، ذلك أني وجدت في تلك المناقب ، صورة أحداث التاريخ في نفوس الذين عاشوا في بيئة أم المصطفى ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسي للأحداث ، معينا لى على تبين شخصية « آمنة » وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها .. كما كان الذى روه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوره من أمانيتها وآمالها ، صورا نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وإن بدت في صورة الخيال الطليق الملهم الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال .

أنوثة وأمومة

« أنا ابن العواتك من سليم »

(حديث شريف)

لا نرى أن نضى في الحديث عن إحدى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم في الجزيرة الى عهد « آمنة »
ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة في الجاهلية قد كانت — في خير حالاتها — متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والهوان ما أنقذها منه الاسلام . وعلى الرغم مما ثقل إلينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية في الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون ، فإن تلك الأخبار لم تدع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التي تتحدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما أتى ذلك من مظاهر الضعة والهوان .



ولا نقول إننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية في تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى لم يضمنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها .. وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذلك الذى سجلوه ، بعض ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة في العرب قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم ونبد ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التي صينت بالدماء واقتديت بالمهيج والأرواح ..

ويعيننا هنا بوجه خاص ، ما تعلق بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما لـ « آمنة » من فضل في إنجاب خاتم الرسل وما كان لها من أثر في تكوين ولدها الخالد الذى قال معتزا بأمهاته في

الجاهلية :

« أنا ابن العواتك من سليم »

يُلفت الذى يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب في جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » :
« لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف »

وقال شاعرهم (١) :

وأول خبثِ الماء خبثُ ترابه وأول خبثِ القوم خبثُ المناكح
ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :
« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » . قيل له : « كيف ذلك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأُمها فإنها تعجُرُ بأحدهما »
وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب : « اخترت لكم من الأمهات من لا تسبّون بها » (٢)

ومثله ما أنشده « الرياشى » يخاطب أبناءه :

وأول إحسانى إليكم تخيّرُى لماجدِ الأعراق بادِ عفافها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا كراحتهم للسبأ :
حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من اليهودج حين أسّرت ، فماتت لساعتها وهى تقول كلمتها التى سارت مثلاً :
« المنية ولا الدنية »

وكان العربى ربما تزوج بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مذلة الأسر ومعرفته . من ذلك ما رووه من أن رجلاً من

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار - ٣/٤ ط دار الكتب

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٣/٤

العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزررنى أهلى ليذهب عنى ذل السباء » .

ففعل .. فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » فى إحدى الغزوات وكانت ذات جمال وأنفة ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلّت من نفسه وقلبه أعز مكان ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما :

« ألا ترى ولدك يعيرون بأهمهم ويسمون بنى الأخيذة ؟ »

سألها : « فماذا ترين ؟ »

أجابت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها ، وهو لا يشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه ..

وخرج بها فحجج ، ثم عرج على أهلها زائرا ، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الإقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما انى لأقول فيك - وإن فارقتك - الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألت سترها على بعلٍ خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة . لكن ، ما مرّ علىّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا . والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور (١)

ولا أكاد أعرف - فيما قرأت - أمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى « المبرد » في « الكامل » (٢) أبياتا للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد أذهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا ، كرامة لأمته - وكانت جارية حبشية - فذلك قوله :
أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة بين الرحال
يشق على أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالى

ولأبناء العقائل الكريمات حديث - أشبه بالقصص - عن حرصهم على عزة الأمومة وصياتها بالهج والأرواح ، ولعله يكفيننا هنا أن ننقل مثلا ما رواه صاحب (الأغاني) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمته من خدمة أمي ؟ »

فقالوا : « نعم .. أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباهما مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وأئل أعز العرب ، وبعلمها كلثوم ابن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم ، سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيه ، ويسأله أن تزور أمته أمته ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة في جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت أمته « ليلي » في ظعن منهم .

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق

(١) الأغاني ج ٣ ، ص ٣٨ . طبعة دار الكتب . والقصة مبسطة في « الروض الانف » ، ١٠/٢ . وفيها : كان يقال : من قال ان حاسا أسبح العرب فقد ظلم عروة بن الورد
(٢) بنية الأمل من كتاب الكامل : ٢٥١/١

الملك ، وأدخلت « ليلي » الى « هند » في قبة الى جانب الرواق ، وكان بين الاثنين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمته أن تنحى الخدم اذا دعا بالطرف ، وتستخدم « ليلي » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

— ناولينى يا ليلي ذلك الطبق

فقلت « ليلي » فى نفور وأنفة :

— لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذا ذاك صاحت ليلي :

— وا ذلاه يا لتغلب !

فسمعها ابنها ، فثار الدم فى عروقه ، وانتفض قائلاً : « لا ذل لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند »

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلاً ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا ، نخبرك اليقيناً

بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حُمراً قد روينا

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا ! متى كنا لأمتك مقتوين ؟

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

اذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيناً

ونظت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم
على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمرو بن هند » مفخرة لهم يباهون
بها ما عاشوا ..
قال الفرزدق :

✽ قومي هم قتلوا ابن هند عنوة ✽

وقال صريم التغلبي :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا

لتخدم « ليلي » أمته بموفق

فقام « ابن كلثوم » الى السيف مصلتا

فأمسك من ندمانه بالخنق

وجلّله « عمرو » على الرأس ضربة

بذي شطب صافي الحديد روثق

وقال « الأخطل التغلبي » لجريز يفخر بـ « عمرو ومرة : ابني كلثوم » :

أبني كليب ان عسى للذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

الى ذاك المدى ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما نمنع أن تكون حادثة
« ليلي أم عمرو » من أقاصيص السمار واضافات الرواة ، لكنها لا تفقد
... في أي وضع رضيناه لها - دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة
الأمومة في الجاهلية

وقد شهد الإخباريون للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها
من نصيب في عظمة بنينا ، فهم يذكرون ، فيما روى « القالي » (١) أن
« أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس »
قائلة :

(١) الامالي : ١١٨/٢ ط بولاق

ثكلت نفسي وثكلت بكرى
 ان لم يسد فهرا وغير فهر
 بالحسب العد وبذل الوفر
 حتى يثوارى فى ضريح القبر
 وان « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة بن سلسة »
 يقولها :

نمى به الى الذرى هشام
 قوم وآباء له كرام
 ججاج ، خضارم ، عظام
 من آل مخزوم ، هم الأعلام
 الهامة العليا والسنام

ويروون أن « صفية بنت عبد المطلب » كانت تضرب ولدها « الزبير بن
 العوام بن خويلد » وهو صغير ، وتغلظ عليه ، فعاتبها عمه نوفل بن خويلد
 فى ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضينه . فقالت صفية :
 من قال انى أبغضه فقد كذب
 وانما أضربه لىكى يلبى
 ويهزم الجيش ويأتى بالسلب
 ولا يكن لاله خبء مخب
 يأكل ما فى الطل من تسر وحب (١)

ويعترفون بأن « حاتبا الطائى » انما ورث الجود عن أمه ، ويرى
 صاحب الأغاني (٢) انها كانت لا تثبقى على شىء ، فلما رأى اخوتها اتلافها
 أمسكوا عنها مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة
 من ابلها ، فجاءتها امرأة من « هوزان » تسألها ، على ما تعودت أن تفعل
 كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذها ، فوالله لقد عضتني الجوع
 فلن أضيع سائلا :

(١) نسب قريش : ٢٣٠ ذخائر

(٢) ٩٢/١٦ ط - الساسى - وانظر كذلك جيون الاخبار لابن قتيبة : ٣٣٦/١ ط دار الكتب

لعمرك قديماً عضّني الجوع عضّة
 فأليت ألا أمنع الدهرَ جائلاً
 فقولاً لهذا اللأى : اليومَ أعفى
 وإن أنت لم تفعل ، فعُضّ الأصابعا
 فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم
 سوى عذلكم أو عذل من كان مانعاً ؟
 وماذا ترون اليوم إلا طبيعة
 فكيف بتركي يا ابن أمّ الطبايعا ؟!

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب في الجزيرة ، فنوهوا بذكر
 « المنجيات » من عقائل العرب ، مثل :
 — فاطمة بنت الخرشب : أنجبت لزياد العبسي ، أبناءه الذين اشتهروا
 بلقب « الكملة » وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ،
 وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوماً : « أى بنيك أفضل ؟ .. »
 فبان عليها التردد ، وهي تقول في حيرة : الربيع ، لا .. بل قيس ..
 ثم هتفت : « ثكلتهم ان كنت أدري أيهم أفضل ! هم كالعطلة المفرغة
 لا يدرى أين طرفاها »

— وأم البنين ، بنت عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر . أنجبت له :
 ملاعب الأسنة ، وطفيل الخيل (١) ، وربيعة المقترين ، ونزال الضيف ،
 ومعوذ الحكماء !

— وخبيثة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ،
 وربيعة

— وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصي : هاشما ،

(١) هو القائل :

إذا نزل السحاب بأرض قوم

رعيناه وإن كانوا غصابا

الروض الاتف : ١٧٥/٢

وعبد شمس ، والمطلب

— وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، زوج العباس بن عبد المطلب .
وفيهما يقول الشاعر : (١)

ما ولدت نجيبة من فحل

كسبعة من بطن أم الفضل

— وريحانة بنت معد يكرب الزبيدي ، أخت عمرو بن معد يكرب . كان
« الصمة بن عبد الله الجشمي » سبأها ثم تزوجها فولدت له : دريدا
وعبد الله ، وعبد يغوث ، وقيسا ، وخالدا
وإياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن « ريحانة » الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع
إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وليس بعيد عن مظاهر مجد الأمومة وعزتها ، أن عددا غير قليل من
قبائل العرب وبطونها ، نزع إلى أمّهم وآثر الانتساب إليها ، كبنى
« الخندف » — وهى ليلى بنت عمران القضاية ، زوج الياس بن مضر —
وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد

وأم « الخندف » ، وهى « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى ينسب
إليها « حمى ضرية »

ومن القبائل التى انتسبت إلى أمهاتها : بنو جديلة « بنت مدركة بن
الياس » وإليها تنتسب قبيلة عدوان

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبدية ، ورقاش ، ومزينة ،
وعاملة ، وغفراء ، وباهلة ، وسلول

والعبلات : رهط الثريا بنت عبد الله بن الحارث ، صاحبة عمر بن أبي

« ربيعة » ، ثسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد بن جاذب (٢)

(١) الروض الأنف ٧٩/٢

(٢) أنظر فى هذا كله ، كتاب « جمهرة انساب العرب » لابن حزم — ط النخاطر

ومن الملوك من انتسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ، والمناذرة بنى
« ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم
وكثيرا ما كان الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم ..
قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى ، يبكى
« عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل « قصي » على قريش : (١)
ولا تنس ما أسدى ابن « لبنى » فانه
قد أسدى يدا محترقة منك بالشكر
وأمشك سر من خزاعة جوهر
اذا حصل الأنساب يوما ذوو الخبر
الى سبب الأبطال تسمى وتنتمى
فأكرم بها منسوبة في ذرا الزهر
وقال « بشر بن أبى خازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام » :
إلى أوس بن حارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقد قضاها
فما وطئ الحصا مثل ابن « سعدى »
ولا لبس النعال ولا احتذاها
ولأبيات بشر في أوس ، قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما
للأم من أثر في صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبى
خازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من
وراءه من جاءه به وخيَّره بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت ، أو قطع
يديه ورجليه وتخلى سبيله
ثم دخل « أوس » على أمته « سعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن
يحسن عطاءه ففعل ، فملا « بشر » عراض الآفاق بمداخيل ابن
« سعدى » وأقسم لا يمدح أحدا غير « ابن سعدى » ما عاش (٢)

(١) السيرة ١/١٣٩

(٢) انظر القصة بالتفصيل فى كتاب الكامل للمبرد « بغية الامل : ٥٤/٣ » - وتاريخ ابن
الانبار : ٢٢٩/١ - وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠

ولم ينسوا أنه يذكروا للمرأة مشاركتها في جليل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام » في « السيرة النبوية » (١) عن دور المرأة في حلف المطيعين الذي كان بين بني عبد مناف ومن انضموا اليهم في خلافهم مع بني عبد الدار بعد وفاة « قصي بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بني عبد مناف جفنة ملووة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم في المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا .

وقيل إن التي أخرجت لهم الجفنة ، هي « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب » عمة المصطفى عليه الصلاة والسلام .



وغير مجهول ما كان للعرب من حرص بالغ على الأنساب ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قریش لقریش وللأعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

لكننا حين يذكّر النسب ، يتجه تفكيرنا غالبا الى الآباء والأجداد ، دون الأمهات والجداات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا ذكرهن ، وتكفى المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسائين على ذكر الأمهات ، والتنويه بكرم الخنولة .

ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، فيقول الشاعر « جرير » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » :



فما الأم التى ولدت قریشا بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قـرم بأنجب من أيكم وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم النضر — والنضر هو قريش فى قول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش » (١) وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة النبوية ، الا عَجِبَ لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد وانظر كتاب « نسب قريش للمصعب الزبيرى » وكتاب « جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى » (٢) لترى الى أى حد عنى النسابون بالأمهات وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم ، إن فاتها الوأد ، وأنزلوها منزلة الهوان .

على أنا لا نريد أن ننفى كل الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية من ظلم ، لأننا ان فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة وأتت لأحد أن ينفى ما كان فى الجاهلية من محنة الوأد وكرهة الإناث ، ونحن نتلو الآيات المحكمات :

« وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت »

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (٣)

لكن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريم السيدات وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، الى ما روى عن مظاهر هوانهن ، لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون وعصور

(١) السيرة ٩٦/١ ط الحلبى

(٢) نشرتهما دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب

(٣) عالجنا هذا الموضوع بمزيد بيان وتفصيل ، فى كتابنا « بنات النبى » فمن شاء فليرجع اليه . ط دار الهلال بالقاهرة .

أَهْمَاتُ الْأَنْبِيَاءِ

وأجلُّ ما يذكر عن الأنوثة والإمومة ، في كتاب « آمنة » أم النبي العربي ، هو ما في تاريخنا الديني عن أهْمَاتِ الْأَنْبِيَاءِ :
اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا أَرْكَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم — عليهم السلام — قد عهد بهم في طفولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعي فقط ، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه ..
غير أنا نرى الأمر طبيعيا لا غرابة فيه ، إذ الأمومة في عاطفتها السخية ، وإيثارها الباذل ، أقرب إلى أن ترعى طفولة أصحاب الرسائل الدينية ..
وما كانت هذه الرسائل التي حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها في غير موضعها الكريم :
« فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبدل لخلق الله »

أم إسماعيل

« ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير
ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا
الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى
اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم
يشكرون »

(قرآن كريم)

(التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » فى تفصيل مسهب ،
و (القرآن) يشير اليها فى مواضع شتى متركزا على مواضع العبرة :
لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانتقاده من
الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى تكون لهفتها
على الصغير ، والألم الذى كابדתه حين رآته يلهث من ظمأ ، ومسعاها المثير
فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها
الأمومة وتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة ودينا !
ومن « هاجر » ؟

أمّة مصرية ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة » :
امراة ابراهيم الى أرض كنعان ، بعد رحلتها المشهورة الى مصر فى صحبة
زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من
دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهى عاجزة عن
أن تعطى زوجها ولدا ، ثم .. بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ،
لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى حواء من غيرة ،
وخيل اليها أن أمّتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة وورثاء مثذل ،
فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

— أنا دفعت اليك جاريتي ، فلما حصلت ترفعت على !
فرد عليها ملاطفا :

— هي جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين ! (١)

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الأخيرة في احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » وليدها ، فقد صبر السيدة وغلب احتمالها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف
ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه
« هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهي حينذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد
يلم بها سوى نفر من الرحّل ، وقوم من العمالق كانوا يعيشون خارجها
ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء أو انتجاعا لمرعى
وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث بقايا البيت العتيق ، ترك
ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء ماء ، وأمرها
أن تتخذ لها عريشا ، ثم هَمَّ بالرجوع من حيث جاء .. فارتاعت « هاجر »
من وحشة البرية ، وتضرعت الى سيدها « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما
في ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ،
كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته رحمة بابنه الوحيد ، الذي نبذه
وأمنه بالعراء .

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء ؟ » (٢)
وهو منصرف عنها منطلق في سبيله لا يلوى على شيء ، حتى اذا كاد
يتوارى خلف منعرج الوادي ، سمع صوتها الضارع يسأل في لهفة :

— الله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

— أجل

فقال « هاجر » فى استسلام خاشع :
— اذن فالله لا يضيعنا .. (١)

وأطرقت صامته ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيبتة ثنيته الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا انك تعلم ما تخفى وما تعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » (٢)

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »

وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء ، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه اللطيف الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها فى الوادى الأجرد ، بين الجبال الصخرية السود . حتى نفذت مئوتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير الغالى ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى تسعى المجهد ، وصعدت عليها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر !

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » شوطا بعد شوط ، حتى نال منها التعب والاعياء .. فتهافت على الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

(١) الحوار بنصه من التوراة
(٢) سورة ابراهيم ، آيتا ٣٧ ، ٣٨

لدها لم تلبث في مكانها طويلا ، فلقد كان لثبات ولدها الظامى يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مشهده والحياة تتسرب منه وتنطفيء رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل مابقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :
— لا أنظر موت الولد ..

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه التعسة ، يتردد صداهما في البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسبحار السباع الجائعة المحومة على المكان .. كأنها ترقب الخفقة الأخيرة في فريستها المنتظرة ..
ثم كانت النجاة ..

حوم طائر على المكان ثم حط على بقعة هناك ، فظل ينقر فيها بمنقاره حتى انبثق ماء «ززم» فهرعت «هاجر» نحوها وهى تحس موجة دافقة من القوة والحيوية في كيانها ، وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ..
ودبت الحياة في الوادى الأجرد ..

« مرت رفقة من جرحهم مقبلة من طريق كداء ، تريد الشام ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم على ماء العهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها : ان شئت كنا معك فأنسناك ، والماء مأوك ..

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان مكة »

وخلدت « هاجر » الأمة المنبوذة ، صورة مؤثرة مثيرة للأوممة في حنوها وآلامها وهمومها ...

وعاش ولدها اسماعيل — ذاك الذى رعته وحدها حين تركه أبوه فى

«بلقع القفر - ليتقى مع أبيه ابراهيم ، عهد الله سبحانه :
 « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى
 وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاذلين
 والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق
 أهله من الثمرات مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه
 قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم
 القواعد من البيت واسماعيل ، ربَّنَا تقبل منا انك أنت السميع العليم .
 ربَّنَا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمَّةً مَسْلُمةً لك ، وأرِنا
 مناسِكَنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربَّنَا وابعث فيهم
 رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ،
 انك أنت العزيز الحكيم » (١)

أم موسى

« ٠٠ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه
فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي
ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من
المرسلين »

(قرآن كريم)

لا يذكر « القرآن الكريم » شيئاً عن والد « موسى » ، وإنما يخص
بالمذكر أمّه ، ويكمل إليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين ضاق فرعون
ببنى اسرائيل وأنكر خبث أفاعيلهم وضراوة شرهم ، فأذلهم واستعبدهم
وراح يسومهم سوء العذاب ..

وتقول الرواية انه رأى في منامه رؤيا أفزعته « فدعا الكهنة
والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد في بنى
اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك على
أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظفك زمانه الذي يولد فيه » (١)
وكفر غصته ونقد صيره ، فأمر يقتل كل غلام يولد في بنى اسرائيل

وولد « موسى » حينذاك خفية ، فارتجفت أمه رعبا وجزعا ، وأشفقت
عليها القابلة فوعدها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أن القابلة
نم تكذب تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ،
وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح ..

غير أنها ماكادت تنصرف من عند أم موسى حتى أبصرتها عيون
فرعون التى بثها في كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون

(١) راجع قصص الانبياء للشعلبى « المرائس » ٠ من ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية

بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

— أماء ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، ألهم الله أم موسى فلفّت ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحرس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء ..

وسألها الحراس فى فظاظة :

— ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

— هى مصرية لى ، دخلت على زائرة ..

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته لم يمسه أذى بفضل الله

وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، وأطرت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفه فى التابوت فاقدفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له » (١)

واسنجات الأم لوحى الله ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟ أغفل أكثر الذين تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على شط النيل ، وقد تعلقت عينها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها .. فتنبعت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيدها فى

(١) من آية ٣٩ سورة طه

اليهم ، لم تفكر الا فى نجاته من جند فرعون ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلّصت وليدها من الذبح : لتلقى به الى أفواه الحيتان !
قال « الثعلبى » :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشيطان فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر » (١)

وتلك اضافة أحسبها من « الاسرائيليات » التى روجها فى المسلمين من أسلموا من اليهود . والقرآن الكريم لا يشير الى هذه الوسوسة الشيطانية من قريب أو بعيد ، بل لعله أقرب الى أن يرفضها وينفيها ، بالنص الصريح على أن قذف الأم لولدها فى اليم ، كان بوحي من الله

ولنا مع ذلك أن تمثلها وقد لبثت فى مكانها على الشاطئ لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى .. حتى افتقدتها ابتتها فجاءت تلتمسها هناك ، وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الأم المحزونة تطوف بأنحاءها ، وتنادى الغائب العزيز ..

وأنزله الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة داعية ، خاشعة مستسلمة لأمر الله

ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به - فيما يروى الخبر - الى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التفتنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر ..

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير يرفع الى « آسية » وجها مشرقا بابتسامة حلوة !

(١) من قصص الانبياء : ١٧٤

وأقبلت عليه تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يفتح له ، كأنما هو قطعة منها ..

ولم يكن لها ولد ، فما أجملها هديةً تقدمها السماء الى أمومتها المحرومة !

في هذا كانت تفكر ، حين أقبل حرس فرعون على جناحها ، يطلبون الصبي وقد سمعوا به .
قالت أمرة :

— انصرفوا ، فان هذا لايزيد في بنى اسرائيل ..

ثم لما رأت ترددهم ، خفت من صرامتها وقالت :

— دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلن ألومكم ..
وجاءت « فرعون » فتوسلت اليه قائلة :

« قرّة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » (١)
فكان جوابه :

— قرّة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه ..

ثم استدرك بعد لحظة :

— لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل ، وان يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده ..

فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به الى جناحها من قصر فرعون ، والدنيا لاتسعها من فرط فرحتها ..

وهناك فى حى بنى اسرائيل ، كانت « أم موسى » مشغولة البال لاتدرى مصير وليدها الرضيع .

قالت لأختها :

— « قصّيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحيى هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت الأخت تلتبس أثر أخيها ، وسارت بجذاء النهر حتى حملتها
قدماءها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما
رضيعا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ،
حتى رأت جواري امرأة فرعون يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل
ثدى إحداهن ..

هنالك لاذت أخته بكل مافى طاقتها من شجاعة كى تدارى عواطفها
وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ،
فى صوت حاولت ألا ينم عن شيء مما كان يخالجهما :

— « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون » (١)

فراى القوم ماسمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

— ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

— بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

— لعلك تعرفين أهله ، والا فما يدريك أنهم له ناصحون ؟ ..

فهزت رأسها قائلة :

— الأمر أبسط مما تظنون ! كل ما هناك انى أعرف فيهم الرحمة وطيب

القلب ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربا

الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى وحدتها ،

خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحتة ، فأمسكت صبيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق

فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمتة الى صدرها

فى رفق ، وألصقت ثديها ..

(١) من آية ١٢ سورة القصص

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا أبناء «موسى» للمراضع جميعا ،
 إذ رأوه يلقف الثدي في لهفة الظامىء يجد ريئا !
 ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل امرأة فرعون إليها يصحبون «موسى»
 وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما ..
 قالت في غبطة :

— هلا مكثتِ عندى ياظئر لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟
 فأجابت الأم :

— بل ان شئت ياسيدتى صحبتته معى الى بيتى أرضعه وأرعاه ، فانى
 أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف ، فتأبى أن
 تقيم فى القصر ظئرا لولدها .. لكن لا عجب ، فلقد أدركت الأم انها
 سيدة الموقف مادام الوليد قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف
 تعلق « امرأة فرعون » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى
 دارها كى تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر
 وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لاتنجو به من رقباء قد يرببهم حنوها الغامر على الصغير ؟
 لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مر :

اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتكبت أشواق أمومتها ، كى لا يسترىب
 القوم فى أمرها ، وذلك مالا طاقة لأمومتها به بعد الذى كان ...

واما أن تترك نفسها على سجيتهما ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !
 ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، مايغريها بأن تختار له
 ولنفسها المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الشعلى » :

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ،
 وأيقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده »

ولم تجد « امرأة فرعون » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها ، حرصا على حياة الرضيع ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..
فذلك قوله تعالى فى سورة القصص :

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم* ولا تخافى ولا تحزنى انا رادّشوه اليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدّثكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمّه كى تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين » (١)

وقوله تعالى فى سورة طه :

« قال قد أوتيت سؤالك يا موسى . ولقد منّنا عليك مرة أخرى . اذ أوحينا الى أمّك ما يوحى . أن أقذفيه فى التّابوت فاقذفيه فى اليم فليثلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني . إذ تمشى أختك فتقول هل أدّثكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمّك كى تقرّ عينها ولا تحزن » (٢)

هكذا نزل الوحي على « أم موسى » بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد الموعود بالنبوة ...

(١) سورة القصص ، آيات ٧ : ١٤

(٢) سورة طه ، آيات ٣٧ . ٢٠

أم المسيح

« اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله
يشارك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن
مريم وجيها في الدنيا والاخرة ومن
المقربين »
(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ...

انه « عيسى بن مريم » كما دعاه كتاب الاسلام ..
ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبي المسيحية الى أمته التي طهرها
الله واصطفها على نساء العالمين ..

وقصة أمومة « مريم » بالغة الاثارة ، فلقد تعرضت - عليها السلام -
لأقسى ماتعرض له أثى : نشأت في بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من
كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب مافي بطنها
لخدمة الهيكل : « اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك مافي بطنى
محرراً فتقبل منى انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب انى
وضعتها أثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأثى ، وانى
سميتها مريم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها
ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا » (١)

ذلك أن أبها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها
من آلهها ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها ..

(١) سورة آل عمران - آيات ٣٥ : ٣٧

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنتَ لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون » (١)

وأضت مريم صباها في المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها في خلوتها من بشرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » (٢)

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروح منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء ضارعة :

« قالت أنسى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين » ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا » (٣)

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس رهيب تعانیه عذراء طاهرة نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فاتبذت بحملها مكانا قصيا ، وأقامت فى وادٍ للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التناسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض ألجأها الى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مذودٍ للماشية ، وقالت :

« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » (٤)

ثم كان مالا بد أن يكون ..

مضت « فأنتم به قومها تحمله » قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريئا . يا أخت هارون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمثك بغيا » (٥)

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عففتها وطهرها ، ولا أنقذها من لعنتهم

(١) سورة آل عمران : آية ٤٤

(٢) سورة آل عمران : آية ٤٥

(٣) سورة مريم : ٢٠ ، ٢١ وانظر معها آية ٤٧ من آل عمران

(٤) سورة مريم : آية ٢٣

(٥) سورة مريم : آيتا ٢٧ ، ٢٨

مابدا من ولدها الصغير من آيات بيّنات ، بل رمّوها بالافك وقالوا عليها « بهتاناً عظيماً » ، فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها ، راضية بما هو أقسى من الموت في سبيل ولدها الموعود بالمجد العظيم ..

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكي تنجو به من الكيد والأذى ، حيث أقامت هناك اثني عشر عاما ، ترعاه وتكدهح لتهيئ له أسباب العيش ووسائل التعليم ..

ولم يججد الكتّاب المسلمون ذلك الكفاح الصّابر ، بل كتب « الثعلبي » : « فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل في أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد في منكبها ، والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر » (١)

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعده بين يدي المؤدب حتى أذن الرب لها ، فعادت به الى اورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى » (٢)

وسكننا في قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هي التي لاذ بها عندما تجلّت له الرؤيا ، وكاشفها بهوموم الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع ..

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ، فذكر في الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتونا ، وهناك تجلّت له الرؤيا وعلم أنه نبي مرسل الى بنى اسرائيل فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه — أى عيسى — لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ماعليه من دين لها بخدمتها ..

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بني ، انى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس . ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية » (١)
بعد أن صحبتته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها للدور العظيم الذى ينتظره ..

انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الأيام ، آية من آيات الله ..
« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »
« وجعلناها وابنها آية للعالمين »

وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل ، والمبعوث بآخر رسالات الدين ...

(١) انجيل برنابا : الاصحاح العاشر

بيئة.. ووراثة

— البيت العتيق ..

— بنو زهرة ..

البيت العتيق

« ٠٠٠ واذ جوانا لابراهيم مكان البيت
ان لاتشرك بى شيئاً وظهر بيتى للطائفين
والقائمين والركع السجود » واذن فى
الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر
ياتين من كل فج عميق ٠ »
(قرآن كريم)

ليك اللهم ليك!

هو الهتاف الخالد ، رددت صدها الآفاق المكية منذ ما لا يحصى من
السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، مليئة أذان
« الخليل » فى الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبی العربی
اليقيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبد الله بن عبدالمطلب
ابن هاشم » ، منذ أربعة عشر قرناً ، ونحو نصف قرن ..

يا أَذْنُ الزمان الواعية ..

و يا عينَ الدهر الباصرة ..

أى السِّنة للعابدين سمعتِ ؟

وأى وجوهٍ هنالك رأيتِ ؟

وأى ألوان من البشر شهدتِ ؟

أى ألوية خفقت وأى هامات اثنت ، فى هذه البقعة من الأرض ،
وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السود والجبال الشم ،

مند جُعِلَ « البيت » هنالك مثابةً للناس وأمنا ، وحرما وملذا ،
يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروع ، ويحقن عنده الدم المهدر ،
وتحمى في حماه حياة كانت اذ ذاك مستباحة في شرعة الصحراء
وبضراوة البيداء !

« ان أول بيت وضع للناس ، للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » (١)

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفت في الدنيا بيوتا وبيوتا ..

ورأيت معابد وصروحا ، في شرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث
وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان - وسيظل - عكما شامخا ومنارا
عاليا ، ترامت أضواؤه وأصدائه الى أبعد مما ترامى اليه تأثير بيت سواه
أو مزار !

ومن يدري يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت أصابعك الباطشة
أوراقها من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من
أرض الحجاز ، مأوى يسير الشأن ، ومحط هين الأمر ، يريح فيه
المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم ، في طريقهم بين الشمال والجنوب
ذهابا وجيئة ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق في قلب الفلاة !

من يدري يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت بك ، قبل أن
يجد أولئك الضاربون في الصحراء عبر الوادي القفر المرهوب والقيافي
المهجورة الموحشة ، موئلا في جوار « مكة » يترشون عنده التماسا للحماية
والعون ، وتزودا بشيء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى ومسراهم
المخوف ، عبر القياfi والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب ، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عبادة ، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم يتشالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض الا موضعا ، وعزَّ الأمان الا في مكان ؟!

كيف نَمَتَ «مكة» معك يازمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ، وتتواصل حضارتا الشرق والغرب ، حين كانت الأبل وحدها عُدَّة السير ووسيلة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجّت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس ، والهند والصين . ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ومن المغرب بما عند مصر ووادى النيل ، ودفعت ذلك كله الى هناك ، عن طريق البحرين : الأحمر والأبيض ؟!



ليس غيرك يازمن ، من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلّعهم الى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية ..

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفاراً ، أنزلها القوم منذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها . وما نزال نتخذ منها مراجعنا ومصادرنا فى معرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لانملك - الى اليوم - مصادر تاريخية عن ذاك العهد الموهل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الملامح العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من

القضايا الاجتماعية الكبرى ..

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر ، إلى أن تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار علمية نقيم عليها الدرس التاريخي

منذ متى بدأ التاريخ الديني لمكة ؟ ..

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخي « مكة » إلى عهد « شيث بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا ، فلانكاد نعرف الا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجاري بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت في ذلك العهد السحيق موئلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراجلين والتجار ..

ثم تطورت العبادة في ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها « ابراهيم » فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ مكة ، أجلى وأوضح ، وأوفى أخبارا .. وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابراهيم » في تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجيء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه « اسماعيل » وأمه « هاجر » هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأً لولا أن انبثق ماء زمزم فأمسك عليهما الحياة ، يجذب القوافل في أعقاب الرعاة ..

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابراهيم » في تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى ذريته التي أسكنها بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم ، كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التي عهد بها الله سبحانه ، الى ابراهيم وولده اسماعيل .
كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز الديني والاقتصادي لمكة :

« أوَ لمْ تَمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمَنَّا يَجِبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا

من لدننا ولكن أكثرهم لا يعلمون» (١)

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخضع له الجبال الصخرية الشمس :
التي تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبناء البادية وسادة
الصحراء ...

ومن ثم يمضى مؤرخونا القدامى وروائنا الأول فيملأون المجلدات
والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك « البيت العتيق » كيف عظمت وجلت ،
وعن « مكة » في عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التي
بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » - وهم خثولة ولد اسماعيل - تولوا أمر
البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من « بنى
اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما » في ولايتهم ، رعاية
لقربائهم ، واعظاما لحرمة « مكة » أن يكون بها بغى أو قتال . فلما خلا
الجو لجرهم ، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها . ويقول
ابن اسحاق : « وكانت مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها
أحد على أحد الا أخرجه ، ولا يريد لها ملك » يستحل حرمتها الا هلك
مكانه ، فيقال انها ما سُميت ببكة الا لأنها كانت تبك - أى تكسر -
أعناق الجابرة اذا أحدثوا فيها شيئا » (٢)

وهكذا أخرج جابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ، يرثيهم
شاعرهم فيقول : (٣)

وقائلةٍ والدمع سكبٌ مبادرٌ
وقد شرقت بالدمع منها المحاجرُ

(١) من آية ٥٧ : سورة القصص

(٢) السيرة لابن هشام ج اول ، وانظر نهاية الارب للنويرى : ٢٣/١٦ ط دار الكتب

(٣) السيرة ١٢٠/١ ونهاية الارب : ٢٤/١٦

كَانَ° لم يكن بين «الحَجَّون» الى «الصَّفا»
 أنيس° ، ولم يسم بمكة سامر
 فقلت لها والقلب منى كأنما
 يلجلجه بين الجناحين طائر°
 بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
 صرقت الليالى والجودود العواثر
 وكنا ولاية° « البيت » من بعد « نابت »
 نطوف بذاك « البيت » والخير ظاهر
 فأخرجنا منها الملييك° بقدرة°
 كذلك - يا للناس ! - تجرى المقادر
 فسحّت دموع العين تبكى لبلدة°
 بها حرم° أمن° ، وفيها المشاعر
 ورووا أن « ثبعا الحيرى » مر بقرب « مكة » فى طريقه الى اليمن ،
 فأناه نفر° من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، فقالوا له :
 - أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك ، فيه
 اللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، والذهب ، والفضة ؟ ..
 قال :
 - بلى ! ..
 قالوا :

- بيت بمكة يعبداه أهله ، ويصلّون عنده ..
 وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « ثبّع » بذلك ، لِمَا عرفوا من هلاك
 مَنْ أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقول « السهيلي » (١) : « وروى
 نقلة الأخبار أن « ثبعا » لما عمد الى البيت يريد اخراجه ، رمى بداء
 تمخض منه رأسه قيحا وصديدا .. وأتتن حتى لا يستطيع أحد ان يدنو
 منه قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت° عليه ريح° كنعنت منه - أى أيبست -

(١) الروض الانف : ٢٧/١ ط الجمالية

يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة .. فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهاهم مارأوا منه ولم يجد عندهم فرجا «
حتى جاءه حبران من اليهود ، فقالا : لعلك هممت بشيء في أمر هذا البيت ؟

فقال : « نعم .. أردتُ هدمه » وذكر لهما ما قال الهذليون ..
فصاح الحبران :

« ما أراد القومُ الا هلاكك وهلاك جئندك . ما نعلم بيتا لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت مادعوك اليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا »

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ، ويعظمه ويكرمه ، ويخلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم .. ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه . وأقام بمكة - فيما يذكرون - ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا ..
فيقال انه برىء من دائه وصح من وجعته .

ويعلق « السهيلي » على ذلك قائلا :
وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه وتعالى يقول :
« ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم » (١)

ثم يروى لـ « تبع » شعرا ، يقول فيه :
وكسونا البيت الذي حرّم الله
هـ ملاء منضدا وبرودا
ونحمرنا بالشعب ستة ألف
فترى الناس نحوهم وبرودا

ثم سِرنا عنه توم سَهِيلا

فرفعنا لواءنا معقودا (١)

وسوف نسمع قصة صاحب الفيل الذي رده الله عن بيته في العام الذي وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، محمد بن عبد الله .. (٢)

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغا يصوره لنا ما رواه عن السيدة « عائشة » أنها قالت : مازلنا نسمع أن « اسافا ونائلة » — من أصنام العرب في الجاهلية — كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحدثا في الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجرين !

وقد ذكر ابن اسحق في « السيرة » وابن الكلبي في « الأصنام » وياقوت في « معجمه » نسب هذين المخلوقين اللذين مسخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة .. (٣)

كما يصور تلك الحرمة ، ما نقل ابن هشام في السيرة النبوية : « أول ما كانت عبادة الحجاراة في بني اسماعيل ، انه كان لا يظعن من مكة ظاعن » منهم — حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد — الا حمل معه حجاراة من حجاراة البيت تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه — أى الحجر — فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غالبا تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك مارووه أن امرأة من « جرهم » كانت لاتلد ، فنذرت لله ان هى ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « العوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، وفاء بنذر أمه :

(١) القصة مروية بمزيد تفصيل فى الجزء الاول من السيرة النبوية لابن هشام ، والجزء الثانى من تاريخ ابن الاثير

واقرا فى (السيرة : ٢٦/١) قصيدة لـ « سبيعة بنت الاحب » خالد بن عبد مناف ابن كعب المرى ، تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها ، وتذكر قصة تبع الحميرى .

(٢) السيرة : ١٦٧/١

(٣) السيرة : ٨٤/١ وانظر « الاصنام لابن الكلبي »

انى جعلتُ ربًّا من بنيته
 ربيطةً بمكة العليّة
 فباركنْ لى بها أليته
 واجعله من صالح البريّة

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ماوصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهماً حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصى ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن النصر » الذى هو قریش على أرجح الروايات .

وكان « قصى » يدعى زيدا حتى مات أبوه « كلاب » وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملها الى بلاده ، وبقي « زهرة » أخو « قصى » فى مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال ..

وشب « قصى » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تسابَّ هو ورجل من قضاة ، فعيَّره قائلا :

— لستَ منا ، وانما أنت فينا ملصق ..

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

— يا بني ، صدق .. انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، وأخوك زهرة ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران بيت الله الحرام ..

وعاد الى مكة رجلا ، فاتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، واذا ذاك رأى أنه « أولى بالكعبة وبأمر الكعبة » من خزاعة وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقریش سليل اسماعيل وصريح ولده »

وشبّت الحرب شعواء بين قريش ومن خالفها، وبين خزاعة وبنى بكر، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، وحكّموا « يعمر بن عوف البكرى » فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ مكة ، إنها قد بدأت بقصى عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدّت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، وبها حاز شرف مكة كله وأبقاه في ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون ان احدا نازعهم فيه قط .. وكان أمر « قصى » في قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يتعمّل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها

فلما أدركه الكبير ورق عظمه ، عز عليه ألا يدرك ولده البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » في زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه ..

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا ، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عمهم « عبد الدار » مما كان جدّهم « قصى » قد جعله اليه من : الندوة ، والحجابة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل :

لبنى عبد الدار : الحجابة واللواء والندوة

ولبنى عبد مناف : السقاية والرفادة ..

وظائف دينية ضخمة ، استحدثت بعضها « قصى » ، وبعضها قديم عريق

طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاه الزمن وسجله الشعراء مباهين
قال « أوس بن تميم السعدي » مفاخرا بما كان قومه يتولون من إجازة
الناس بالحج من عرفه :

لا يبرح الناس ما حجثوا مُعَرَفَهُمْ

حتى يقال : أجزوا آل صفوانا

مجد " بناء لنا قديما أوائلنا

وأورثوه طوال الدهر أخرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بني مالك بن كنانة ، يفخر بالنساء على
العرب :

لقد علمت معد أن قومي

كرام الناس أن لهم كراما

فأى الناس فاتونا بوتر ؟

وأى الناس لم نعلك لجاما ؟

ألسنا الناسئين على معد ؟

شهور الحِل نجعلها حراما ؟

وذلك أنه كانت للعرب أشهر حرّم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو
طلب ثأر ، إلا أن ينسأها لهم أحد النساء ..

ثم كانت للعرب في مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « إبراهيم »
القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد الله اليهما أن يطهرا بيته
للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا
وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بني اسماعيل لحجارة الحرم
التي حملوها معهم تبركا . ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه
فعبدوا الأوثان . وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ،

من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية .



وطال المدى و « مكة » مهوى الأفئدة وقبله العرب ، لا تكاد بقعة أخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع في انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ..

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة في خارج الجزيرة وداخلها ، ما تناقله الاخباريون من حديث البيت الذى أقامه « العساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بناها « أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب ..

وقد جلب اليها « الرخام المجزع » والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراحه فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقي البيت العتيق بمكة كما كان — وكما سيظل الى الأبد — مثابة الخائفين ، وقبله الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (٢)

وماتزال الدنيا — حتى الساعة — تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل

(١) الروض الانف : ٣٠/١

(٢) سورة الحج . آية ٢٧

منظرا وأرغد عيشا وأخصب أرضا ..
وما زال كثير من المستشرقين ، في عجب من أمر تلك العزة المنيعه ،
تظفر بها بقعة جرداء في واد غير ذى زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم في
القرن العشرين فيقول :

« في قلب الصحراء ، في واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية
يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على طرقها ..
« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ،
حتى ليخال المرء أن لانهية لتلك التلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء
المترامية التي يكاد ضوءها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس
برهة ينجو فيها من حرارتها اللافتحة . فحساها ، وصخورها الصم ، تبعث
الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يخترق ، ويصعد الى السماء دخانه ..
« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما
جمدت في تلك القلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك
أذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ..

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل في النخيل أو ظلال
الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى
بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شيء ينبت في بلدة الرسول المقدسة ،
والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية » (١)

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمة لاتدرك ولا
تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ، تجلو لنا سر تلك القداسة
العريقة التى لم تزل منها السنون ولا عكدت عليها عواذى الزمان ..

أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟
لا بأس علينا من ذلك ، ففي هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التى
عرفها التاريخ أماء خالدة .

ففيها كان منبت «آمنة بنت وهب» والددة اليتيم الهاشمي العربي الذي
بعث في مكة ، فأيد بمبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب
يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واتخذ من الكعبة التي تعبد فيها «الخليل» ،
قبيلته التي يثولى المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا في مشرق أو
مغرب ، ما عبّد الله في الأرض ...

بنو زهرة

« ٠٠٠ لم يزل الله ينقلني من الاصلاص
الطيبة الى الارحام الطاهرة مصطفى
مهديا ، لا تشعب شعبتان الا كنت في
خيرهما »
« من حديث شريف »

في يوم لم يحدده التاريخ ، في نحو منتصف القرن السادس الميلادي ،
رأت النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التي كانت ذات الشأن الأول
في تلك المنطقة المقدسة ، والتي استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة
وما يتبعها من أمجاد وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) ابن كلاب بن مرة بن كعب بن
لؤي - وبه كان يكنى فيقال : أبو زهرة (٢) والأخ الشقيق ل « قصي »
الذي ولي أمر مكة ماعاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها
في شيء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » حفيد قصي وزهرة ابني
كلاب ، بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصي : « فاطمة بنت سعد بن سَيْكَل » أحد بني الجَدْرَة .

(١) كذا في تاريخ الطبري ، والسيرة ، لابن هشام ١٠٩/١ . وليس في جمهرة « انساب
العرب » ولا في « نسب قريش » إشارة الى خلاف في أن زهرة رجل . فحيثما ورد ذكره في
الانساب كان « زهرة بن كلاب » - انظر جمهرة الانساب صفحات : ١٢ ، ١١٩ وما بعدها
لكن جاء في « المعارف لابن قتيبة » ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة . قال
« السهيلي » في الروض الانف ٧٩/١ : « وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما
قال ابن اسحاق »

يشير الى قول ابن اسحاق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصي بن كلاب ، وزهرة
ابن كلاب »

وقد علق فاشرو السيرة على هذا بقولهم في الهامش : « وزهرة امرأة نسب اليها ولدها
دون الاب ، وهم أحوال الرسول » ثم لم يزدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم في هذا العدول
عن نص رواية ابن اسحاق . ويلاحظ عليهم انهم في رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ،
نقلوا عن الطبري نصا صريحا في أن زهرة رجل كما نقلوا في هامش ص ١١٥ من الجزء
نفسه ، عبارة ابن قتيبة في المعارف ، وتعليق السهيلي عليها : وهذا منكر غير معروف ، وانما
هو - أي زهرة - اسم جدهم كما قال ابن اسحاق . ثم لم يعللوا على هذا التناقض في
الروايات . وانظر نزابة الارب للنويري : ٢٠/٦ ونسب فريش : ١٤
(٢) نهاية الارب : ١٩/١٦

لَتَقَبُّوا بِذَلِكَ نَسْبَةَ إِلَى جَدِّهِمْ «عَامِرُ بْنُ عَمْرٍو الْأَزْدِيُّ» وَكَانَ قَدْ
بَنَى لِلْكَعْبَةِ جِدَارًا حِينَ دَخَلَهَا السَّيْلُ ذَاتَ مَرَّةٍ ، فَفَزَعَتْ قَرِيشٌ لَذَلِكَ ،
وَخَافَتْ أَنْ جَاءَ سَيْلٌ آخَرٌ أَنْ يَذْهَبَ شَرْفُهَا وَدِينُهَا . فَلَمَّا بَنَى «عَامِرُ»
الْجِدَارَ ، سَمَّى الْجَادِرَ ، وَلَقِبَ أَوْلَادَهُ مِنْ بَعْدِهِ بِنِى الْجَدْرَةِ .. (١)

وَلِسَعْدُ بْنُ سَيْلٍ ، جَدُّ قِصَى وَزَهْرَةَ لِأُمِّهِمَا ، يَقُولُ الشَّاعِرُ :

مَا نَرَى فِي النَّاسِ شَخْصًا وَاحِدًا

مَنْ عَلِمْنَاهُ ، كَسَعْدِ بْنِ سَيْلٍ

فَارِسًا أَضْبَطَ مِنْهُ عِسْرَةً

وَإِذَا مَا وَقَفَ الْقِرْنُ نَزَلَ

فَارِسًا يَسْتَدْرِجُ الْخَيْلَ كَمَا اسْتَدْرِجَ

الْحَرَّ الْقَطَامَى الْحَجَلُ (٢)

عُثِرَ «بَنُو زَهْرَةَ» مِنْذُ كَانُوا ، بِالْوُدِّ الْخَالِصِ لِبَنَى عَبْدِ مَنْفٍ بْنِ قِصَى
دُونَ أَخَوَتِهِمْ مِنْ بَنَى عَبْدِ الدَّارِ . وَقَدْ سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ ، فِي حَدِيثِنَا عَنْ
«الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ «قِصَى» حِينَ كَبُرَ وَرَقُ عَظْمِهِ ، فَعَزَّ
عَلَيْهِ أَلَّا يَبْلُغَ ابْنَهُ الْبَكْرَ «عَبْدُ الدَّارِ» مَا بَلَغَهُ ابْنُهُ «عَبْدُ مَنْفٍ» مِنْ
شَرَفٍ وَرَفْعَةٍ ، فَقَالَ قِصَى لِبَكْرِهِ :

«أَمَّا وَاللَّهِ يَا بَنَى لِأَلْحَقْنَكَ بِالْقَوْمِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ شَرَفُوا عَلَيْهِ : لَا يَدْخُلُ
رَجُلٌ مِنْهُمْ الْكَعْبَةَ حَتَّى تَفْتَحَهَا أَنْتَ لَهُ ، وَلَا يَعْقِدُ لِقَرِيشٍ لَوَاءً لِحَرْبِهَا
إِلَّا أَنْتَ بِيَدِكَ ، وَلَا يَشْرَبُ أَحَدٌ بِمَكَّةَ إِلَّا مِنْ سَقَاتِكَ ، وَلَا يَأْكُلُ أَحَدٌ
مِنْ أَهْلِ الْمَوْسِمِ طَعَامًا إِلَّا مِنْ طَعَامِكَ . وَلَا يَنْقُطِعُ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِهَا إِلَّا فِي
دَارِكَ» .

ثُمَّ كَانَ مَا كَانَ مِنْ إِذْعَانِ قَرِيشٍ لَوْصِيَةِ شَيْخِهَا حِينًا ، ثُمَّ اجْتَمَعَ بَنَى
عَبْدِ مَنْفٍ بْنِ قِصَى : عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ وَالْمَطْلَبُ وَنَوْفَلٌ ، عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا
مَا بَأْيَدِي بَنَى عَبْدِ الدَّارِ ، لِشَرَفِهِمْ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ ، فَتَفَرَّقَتْ عِنْدَ

(١) الْمُصَعَّبُ الزَّيْرِيُّ : نَسَبُ قَرِيشٍ ١٤ ذُخَائِرُ - ابْنُ هِشَامٍ : السِّيَرَةُ ١٠٩/١ حَلَبِي

(٢) السِّيَرَةُ لِابْنِ هِشَامٍ ١١٠/١ . وَانْظُرْ أَخْبَارَ مَكَّةَ لِلْأَزْهَرِيِّ : ١١

وَالْقِرْنُ : النَّظِيرُ . وَالْحَرُّ الْقَطَامَى : الصَّقَرُ

ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكائتهم في قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا ينزع منهم ما كان « قصى » جعله اليهم .

وعقد كل فريق على أمرهم حلفا مؤكدا ، على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا بالمطيين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا بالأحلاف .

وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف في ذاك الحلف ، ولما عبت كل قبيلة من المطيين لأخرى من الأحلاف ، عبت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنيها (١)

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف اخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم متجاورة كذلك ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبنى مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى .



وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل المبعث بنحو عشرين سنة ، وكان أكرم حلف واشرفه . وذلك أن رجلا من زبيد قدم الى « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدي حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصي واتتهروه ، فلما رأى « الزبيدي » الشر ، أوفى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ،

وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :
يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعته
بيطن مكة ، نائي الدار والنفسر
ومحرم أشعثٍ لم يقض عثمـرته
يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامـثـه
ولا حرام لثوب الفاجر القدر
فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وصاح : ما لهذا
مترك !

قالوا : فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة ، في دار عبد الله بن
جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى - وعبد الله هو ابن عم
السيدة عائشة - فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على « ألا يجدوا بمكة
مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ،
وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته »
وانصفوا « الزبيدي » من العاصي بن وائل

فيروى « ابن اسحاق » عن سمع « طلحة بن عبد الله الزهري » أن
الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان
حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى اليه في الاسلام لأجبت »
- *** -

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التي عرفت من قديم بصلة الود لبني
عبد مناف بن قصي ، والتي ذكر لها التاريخ مشاركتها في الامجاد الكبرى
لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التي شهدتها « مكة » قبيل
الاسلام ، وتحالفها مع « هاشم » وبنيه في الحلفين العظيمين : حلف
المطييين وحلف الفضول .. من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن
عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التي توجت ذاك المجد العريق
بالشرف الذي لا يدرى ولا ينال ..

أبوها « وهب » سيد بنى زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذي

يقرن اسمه بأبن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » إحدى العواتك اللواتي اعتر بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقية وأصالة ، أمها : « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي »

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي »

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » وهيأتها لأمويتها التاريخية .. ووارثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصي بن كلاب » وجعلته - صلى الله عليه وسلم - يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » : « .. لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما »

وعن « أنس » أنه قال :

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » - بفتح الفاء - وقال : « أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا » نسب " تحسب العلاء بحسبته

قلدته نجومها الجوزاء

حبذا عقد سؤدد وفخار

أنت فيه اليتيم العمام

(١) الروض الانف : ١٠٤/١ - وارجع الى الفصل الخاص « بأسماء الرسول » في الجزء ١٦ من نهاية الارب للنويري * ط دار الكتب - ونسب بنى قصي في « جمهرة أنساب العرب » ١١٨ وما بعدها ط الذخائر * ونسب قريش : ١٤ ذخائر *
(٢) من آية ١٢٨ سورة التوبة

زُهْرَةُ قَرْيَشٍ

- فتاة زُهْرَة
- فتى هَاشِم
- العرس ..
- البشرى ..

فتاة زهرة

« ٠٠٠ وكانت يومئذ أفضل فتاة في
قريش نسبا وموضعا »

(ابن اسحاق)

تفتح صباحها في أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من أصالة النسب
ورفعة الحسب ، ما تزهو به في ذلك المجتمع الملكي المعتر بكرم الأصول
ومجد الأعراق ..

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وقد
ظلت في خدرها مصونة عن الابتذال ، فما في الرواة من يصف لنا ملامحها
أو يتشل صورتها . ومجمل ما ذكره المؤرخون عنها ، انها — عندما
خطبت لعبد الله بن عبد المطلب — « كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش
نسبا وموضعا » (١) ..

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر في أرجاء
مكة ويجذب شبانها الأكرمين الذين زهدوا في كثيرات سواها ، ابتذلتهم
العيون والألسنة ، في دروب أم القرى وأسواقها ...

وقد عرفت « آمنة » في طفولتها وحداتها ، ابن العم « عبد الله بن
عبد المطلب » بين من عرفت من لداتها ، أبناء البيوت القرشية ، إذ كان
البيت الهاشمي أقربها جميعا إلى آل زهرة : جمعتها أوامر ود قديم لم
تتفصم عراه منذ عهد الشقيقين « قصي وزهرة : ولدى كلاب بن مرة »

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٦٥.

وقبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها ، نالقت واياه في الطفولة
البريئة على روابي مكة وبين ربوعها ، وفي ساحة الحرم الأمين ، كما
جمعتها مجامع القبيلة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد
بنى زهرة يتزاوران على ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم « قريشا »
أمر ..

وحين لاحت بوادر نضجها ، كانت خطوات « عبد الله » تسرع به الى
الشباب .

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ، وتسابقوا الى
باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وأمجاد

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب ببنيه العشرة على
هيل في جوف الكعبة ، ففسال لصاحب
القداح : أضرب على بنى هؤلاء بقداحهم
« وكان عبد الله احب ولد عبد المطلب
اليه ، فكان يرى ان السهم اذا اخطاه فقد
اشوى .. »

(ابن اسحاق)

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زهرة قريش » مع أنه
الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعا ، فما كان نهم من يدانيه شرفا ورفعة
وافتوة ..

أبوه « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذي شرف في قومه
شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم »
وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشي ،
وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وأبا طالب » أبوى جعفر
الطيّار ، وعلىّ الإمام .

ثم أنجبت أخاهما الشقيق عبد الله ، أبا محمد الرسول
وجدة « عبد الله » لأبيه : « سلمى بنت عمرو النجارية ، وكانت
لا تنكح الرجال لشرفها في قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا
كرهت رجلا فارقتة » (١)



ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » اذ لم يتقدم

(١) السيرة لابن مشام ٠ ج ١

نخطبة « آمنة » ، فما كانوا يجهلون أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنييه لله عند الكعبة

وأى القرشيين لم يعلم قصة ذلك النذر المحتوم ، الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

كان « عبد المطلب » حين انتهت اليه اماره « مكة » وولى السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب شح الماء .

وذكرَ بَرَّ « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة .. وذكر ما وعاه سمعه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فودع لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المنطمورة ، اذن لكان له شأن أى شأن ! ..

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخابلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله العزيز !

وفى الرواية عن « على بن أبى طالب بن عبد المطلب » :

« قال عبد المطلب : انى لنائم فى الحجر اذ أتانى آت فقال :

— احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تئذم ، تسقى الحجيج الأعظم ..

فعدا « عبد المطلب » بمعور له ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت اليه قریش تصده قائلة : والله لا تتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما ،

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

— ذمّنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين ما أمرت به « (١)

وقاومت قريش ، وعيَّرتَه بقلَّة الولد ، على حين أصرَّ هو على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر ، رفع صوته مكبرا ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

— يا عبد المطلب ، انها بئر أيينا اسماعيل ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

— ما أنا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خُصِّصَتْ به دونكم ، وأعطيتْهُ من بينكم ..

فقالوا : فأنصفنا ، فإننا غيرُ تاركيك حتى نخاصمك فيها ..

قال : لا ، ولكن هلموا الى أمر تُصَفِّ بينى وبينكم : نضرب عليها بالقداح ، أجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له ..

قالوا : أنصفت

وضربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لا ينازعه فى مائها. أحد من قومه قريش

وعبد المطلب — حين اشتغل بحفر البئر — لم يكن له من الولد سوى ابنه الحارث ، فلما لقي من قريش ما لقي ، وسمع تعييرها اياه بقلَّة الولد ، نذر يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوهُ ، لينحرَّزنَّ أحدهم عند الكعبة .

وتوفى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » أصغرهم جميعا (١) ، فتلث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونهم ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ..



أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الأولى - قبل المبعث بنحو احدى وأربعين سنة - ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذى خرج بينه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كل منهم قِدْحًا عليه اسمه ، واستسلموا للصير المقدور صابرين ..

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفًا وحنانًا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب مع بنات عبد المطلب فيمن ذهب الى الكعبة ، لسمع كلمة رب البيت فى الذبيح المختار. والراجح أن « آمنة » لم تبرح دار أبيها ، بل أقامت تتقرب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى العم عبد المطلب ، يختار رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين .. ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم ..



ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملا أرجاء مكة ، متنقلا بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « بنت وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا

ووجمت « آمنة » للنبا كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين

(١) السيرة : ١١٤/١ - شرح المواهب للزرقاني ٩٤/١ - نهاية الارب : ٥٠/١٦ ، ٥١ وعلق ناشر السيرة ، على قول ابن اسحاق : « وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه بما نصه : « الظاهر أنه يريد أن عبد الله كان أصغر ولد أبيه حين أراد نحره » أو لعل الرواية : أصغر بنى أمه . والا فالمعروف أن حمزة كان أصغر من عبد الله .. الخ ، والموقف يحتاج الى مزيد بيان : فلا خلاف فى أن حمزة ولد بعد حادث القداء ، وكاؤ تربا لمحمد ابن أخيه عبد الله . وفى الخبر أن عبد المطلب خطب لنفسه هالة الزهرية يوم خطب لآلته عبد الله « آمنة بنت وهب » وهالة هى أم حمزة بن عبد المطلب . راجع (جمهرة أنساب العرب : ١٣) و (نسب قريش : ١٧) و (الاستيعاب : ٣٧١/١ ط نهضة مصر)

شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى بنى هاشم جميعاً !
وبكت بنات عبد المطلب ، وكنَّ قياماً هناك ينتظرن أمر الله (١) ..
وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعاً ، تصف كيف دخل شيخ بنى هاشم
بأبنائه العشرة على « هُبُلٍ » في جوف الكعبة ، وأخبر صاحب القداح
هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة ، بكل ما يملك من شجاعة وتصميم
وايمان ، ليقول لصاحب القداح :
« اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم
ينقل عينيه بينهم جميعاً ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم
« عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقاً ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ
هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى ! »
وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ،
فخرج القدح على عبد الله !
هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ ولده الغالى بيد ، وأمسك
الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه ! (٢)
بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حى بنى زهرة ،
ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما
تجود بدمعة ! ..

وأقمرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقمرت أندية قريش جميعاً
ودورها .. ترى هل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب
أبيه فى محنته القاسية ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو أنها استطاعت أن
تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهولين ، ولكن ماذا عساها

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥٤/١ ط اورب

(٢) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ - الطبرى ١٧٣/٢ - نهاية الارب : ٥٤/١٦

أن تصنع ، من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الضراعة والدعاء

وولي النهار ..

وأقبل ليل كثيف السواد مترابك الظلمات ، ورجال قريش لم يثوبوا بعد إلى دورهم .

ما الذي أمسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟
لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن مكة ، فما فيها منهم الليلة سامر !

ولاح شعاع ضئيل من الأمل وسط الظلمات المتراكمة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

— لم يكد الأب يهيم بذبح فتاه ، حتى قامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟
قال : أفى بنذرى ..

فقال له قريش وبنوه :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعتذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ (١)

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومي — وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزيير وأبى طالب — فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعتذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .. وأضاف شيوخ قريش :

— فلتنطلق بولدك الى عرافةٍ بخير ، لها تابع ، فلتسألها : ان أمرتك بذبحه ذبحتك ، وان أمرتك بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته (٢) ..

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ — والكامل لابن الأثير : ٦/٢
(٢) اختلفوا فى اسم العرافة ، ف قيل : قطبة ، وقيل : سجاح . انظر السهيلي (١٠٣/١)
والزرقانى (٩٦/١) والنويرى (٥٥/١٦)

فَنَزَلَ «عَبْدُ الْمَطْلَبِ» عَلَى رَأْيِ الْفُؤْمِ ، وَانْطَلَقُوا فِي طَرِيقِ «خَيْر»
يَلْتَمِسُونَ الْكَلِمَةَ الْفَاصِلَةَ مِنْ عِرَافَةِ الْحِجَازِ
مَضَوْا وَخَلَفُوا مِنْ وَرَائِهِمْ قُلُوبًا وَاجِنَةً وَعَيُونًا مَسْهَدَةً ، وَجَنُوبًا قَدْ
نَبَتَتْ بِهَا الْمُضَاجِعُ ، وَالسَّنَةُ ضَارِعَةٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، لَا تَفْتَأُ تَدْعُو اللَّهَ
لِلْمُسْتَشْهِدِ الصَّابِرِ : عَبْدَ اللَّهِ ، فَتَى هَاشِمٍ ..
وَأَعْقَبَتْ رَحِيلُهُمْ أَيَّامَ قَارَبَتِ الْعَشْرِينَ عَدًّا ، وَانِيَاتِ الْخَطْوِ بِطِيَّاتِ
الْمَسْرِى ، كَأَنَّمَا كَانَتْ تَجْرُ أَثْقَالًا مِنَ الصَّمِّ الصَّلَابِ ..
وَبَقِيَتْ أُنْدِيَةٌ قَرِيشٍ وَمَسَامِرُهَا طَوَالَ تِلْكَ الْمُدَّةِ ، مَقْفَرَةٌ خَلَاءٌ
وَعُشْيَتِ بَيُوتُهَا غَاشِيَةٌ مِنَ الْقَلْقِ وَالْهَمِّ وَالْإِنْتَظَارِ ..
وَتَعَلَّقَتِ الْعَيُونَ وَالْقُلُوبُ بِمَشَارِفِ الطَّرِيقِ الْآتِي مِنَ الشَّمَالِ ، تَرْقُبُ
عُودَةَ الرِّكْبِ الرَّاحِلِ ..

وَأَرْهَفَتْ الْأَذَانُ لَعَلَّهَا تَسْمَعُ نَبَأً عَنْ مَصِيرِ الْفَتَى الْعَزِيزِ ..
وَتَتَوَقَّعُ الْحَيَاةَ أَوْ كَادَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْعَشْرِينَ ، فَقَدْ غَابَ عَنْ
«مَكَّةَ» شَيْخُهَا وَفَتَاهَا ، وَمَعَهُمَا سَادَةُ قَرِيشٍ وَنَجْمُهَا الزَّهْرُ ..
وَرَاحَ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ يَسْعَوْنَ بَيْنَ الدُّوَرِ وَبَيْنَ مَرَمَرِ الْقَوَافِلِ ، يَلْتَمِسُونَ
هَنَالِكَ وَافِدًا مِنْ «خَيْرٍ» يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَنْبَاءِ الرِّكْبِ الْغَائِبِ ..
وَشَهِدَتْ اللَّيَالَى نَفْرًا مِنَ الْعَقَائِلِ الْكَرِيمَاتِ ، يَخْرُجْنَ مِنْ دُورِ قَرِيشٍ
كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَذَاذَا بَلْعَنَ الْحَرَمَ تَعَلَّقْنَ بِالْكَعْبَةِ مَبْتَهَلَاتٍ مَتَوَسِّلَاتٍ ، ثُمَّ انْطَلَقْنَ
عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ إِلَى «الْمَسْعَى» بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَسْتَجِيبَ
لِضَرَاعَتِهِنَّ كَمَا اسْتَجَابَ لِضَرَاعَةِ «هَاجِرٍ» فِي هَذَا الْمَكَانِ ، وَأَنْ يَنْقُذَ
«عَبْدَ اللَّهِ» كَمَا أَنْقَذَ جَدَّهُ «إِسْمَاعِيلَ» !



ثُمَّ كَانَ لِهَذَا كُلِّهِ آخَرٌ ، حِينَ لَاحَتْ عَلَى الْأَفْقِ الشَّمَالِيِّ سَحْبٌ مِنْ غُبَارِ
مُسْتَشَارٍ ، تَكْشِفُ عَنْ قَافِلَةٍ تَغْذِي السَّيْرَ إِلَى «مَكَّةَ» فَعَرَجَ الْغُلَمَانُ عَلَى
قِمَمِ الرُّوَابِي وَرُءُوسِ الْجِبَالِ ، يَسْتَكْشِفُونَ أَمْرَ الْقَافِلَةِ ، فَذَاذَا الرِّكْبُ
يَدْخُلُ «مَكَّةَ» عَلَى عَجَلٍ سَاعِيًا نَحْوَ سَاحَةِ الْحَرَمِ ، وَهَنَّاكَ تَرْجُلُوا جَمِيعًا

ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم الى احياء قريش تجمع
الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسمى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى
عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر العرافة والنذر :
حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخير ، وقص عليها « عبد
المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت
لهم :

— ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ..
فلما مشوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها
فقالت لهم :
— قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟
أجابوا : عشر من الابل ..
قالت :

— فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم
اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل
عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ،
فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ..

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية
تقترب ، فقمّن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه بنى هاشم وقريش
يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه « عبد الله » وهم يقتربون من بيت
سيد « زهرة » :

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يارب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا
أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام ...

العريس

« ثم انصرف عبد المطلب أخذا بيد عبد
الله - اثر افتدائه من الذبيح - فخرج حتى
اتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ..
وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ،
فزوجوه ابنته آمنه .. »
(ابن اسحاق)

فيم كان مقدمهم ؟ ..
لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها
« برة » بعد قليل ، متهلة الوجه مشرقة الاسارير ، لتحدثها عن « عبد
الله » كيف اقتدى من النحر :
« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قرءوا عبد الله وعشرا من الابل ،
وضربوا فخرج القِدَحُ على عبد الله
« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج
القِدَحُ على عبد الله ..
« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القِدَحُ على عبد الله ..
« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج
القِدَحُ ، لأول مرة ، على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :
— قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب !
فهز رأسه فى ارتياب ثم قال :
— لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !
فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب » يدعو
الله ، فخرج القِدَحُ على الابل ، ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقِدَحُ

يخرج عليها !

وعندئذ اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، وثحرت الابل ، ثم ثركت
لا يثكد عنها انسان ولا سبع ! » (١)
وسكنت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوى الذى جاءت
من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة
أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من
المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا
تمهيدا لشأن آخر

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احدهما الى الأخرى كأنما تريد أن
تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :
« ان شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لابنه عبد الله » (٢)

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترن « آمنة » تصغى الى قلبها يخفق
عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها : أحقا آثرتها
السماء بفتى هاشم زوجا ؟

وفى حركة تلقائية ، وضعت « آمنة » يدها على قلبها خشية أن ينم خفقاها
عن انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها ، فاحتضنتها
فى حنو غامر مخدر ، فأسلت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن
يخفق كيف شاء !



وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن أمها : صامته هادئة ، لولا أن
سيدات آل زهرة توافدن واحدة فى اثر أخرى ، مهنئات مباركات
وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قریش
ل « عبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار وهب ، يعرضن

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٣/١

(٢) فى السيرة لابن هشام « ١٦٤/١ ان وهبا هو الذى زوج ابنته آمنة - والذى فى طبقات
ابن سعد « ٥٨/١ » انها كانت فى حجر عمها وهيب ، ويضيف الخبر أن عبد المطلب خطب فى
المجلس نفسه « هالة بنت وهيب » وهى أم ابنه حمزة

أنفسهن عليه عرضا صريحا بادی اللهفة ..

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذلك عجباً !

سمعت أن بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، (١) القرشية الأصلية ، استوقفت « عبد الله » قريباً من الكعبة فقالت له :

— أين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب في إيجاز : مع أبي ..

قالت : لك مثلاً الابل التي نُحِرَتْ^٥ عنك اليوم ، ان قلت أن أهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معذراً في تلتطف :

— أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..

وقيل ان « فاطمة بنت مر » — وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر الطبرى وابن الأثير ، كاهنة من خثعم (٢) — دعتة الى نكاحها فنظر اليها وقال :

أما الحرامُ فاللماتُ دونهُ

والحل ، لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغيه

وقيل كذلك ان « ليلي العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم

يستجيب لها ..

(١) هكذا اكتبى ابن اسحاق بذكر نسبها دون اسمها (السيرة : ١٦٥/١) ومثله ابن سعد فى طبقاته (٨٥/١ أول) لكن بهامش السيرة ان اسمها « رقية بنت نوفل » ونقل النويرى فى نهاية الارب (٥٨/١٦) ان اسمها « قتيلة بنت نوفل » ونقل السهيلي فى الروض الانف « ١٠٢/١ » ان اسمها « رقيقة » ومثله فى نسب قريش ١٧٠ ولم يذكرها ابن حزم فى جمهرة انساب العرب : (١١١) مع ولد أبى ورقة « نوفل بن أسد بن عبد العزى » وانما الذى فيه « رقيقة بنت خويلد » أخت السيدة خديجة ، وأخت نوفل بن خويلد ، الملقب أسد قريش ، وأسد المطيبين ..

واقراً حديث من عرضن أنفسهن على عبد الله ، فى الجزء الاول من السيرة ، وفى تاريخ الطبرى ١٧٤/٢ ، والكامل لابن الاثير ٤/٢

(٢) تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ ، والكامل لابن الاثير : ٤/٢

بهذا ومثله أدت النساء يحدثن الى « زهرة فريش » حين نوافذ
عليها للتهنئة ..

وقائلة تقول :

— اعدرن هؤلاء المتعرضات لعبد الله ، زين شباب مكة ..
فتعقب أخرى :

— يا للنفاء العالي ! هل سعتن بأحد افتدى قبله بمائة من الابل ؟
وتضيف ثالثة :

— هنيئا لك يا آمنة ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة
من أجله » !



ترى هل حدث ذلك كله ؟

أكثر المؤرخين الأقدمين يروونه في غير شك ولا ارتياب ، أما المحدثون
فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر أن الوقوف لتقصي
أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما
استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما
قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة في الزواج منه ، فلما بنى بها
تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين يقول « بودلى » في كتابه (الرسول) :

« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم
سحرا وذبوع صيت في مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت
قلوب كثيرات من سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا مجردا ، لوجدنا في
الوقوف لتقصي هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية
عرضا أدبيا فنيا ، فلا معدى لنا عن الالتفات اليها ، كيما نرى حقيقة
الصورة التي نسلها القوم للأمم التي ولدت المصطفى ..

ونكاد لا نشك في أن « آمنة » سمعت وهي على وشك الزفاف ، كثيرا

عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتاها الموموق ، وأنها تلقت التهنئة الحارة بزواجها من الشاب الهاشمي الذي ملأ الأسماع بقصة فداؤه ، كما ملأ الأعين بسحر فتوته ونضارة حيويته ..

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، مضت « آمنة » تفكر في فتاها الذي لم يكذب يفتدى من الذبيح حتى هرع اليها خاطبا ، زاهدا في كل أنثى سواها ، غير ملقٍ أذنيه الى ما سمع من دواعي الاغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها في زحمة المهنتات ، ولذَّ لها أن تغيب عنهن وهي بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى اليها لم يكذب يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء ..

كم فكر فيها عبد الله ؟

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذي احتمله وعاناه ؟

أسئلة ربما خطرت على بال آمنة وهي في حلمها المستغرق ، حتى أفاقت منه على ضجة الدار تنهياً لعرس عاجل قريب ..

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكين تعلقا بالشباب الذي مسَّت الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد شعرة ، أنقذه الله بأعلى فدية عرفها العرب ! وأضيئت المشاعل في شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمة الجبل لكي يذبحه طاعة وقربانا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ..

انها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد طبقة ، وجيلا من بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه فى البيت العتيق الذى رفع انقواعد منه ، ابراهيم* وولده اسماعيل ، الذبيح المقتدى .. والبطل اليوم ، هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التى عمرت أم القرى ، وتوارثت مجد الجدود ..

وربما خطر لبعض السمار فى ليلة العرس تلك ، أن يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما أبعد أو أكثر ، فحاول أن يتلصص وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لاسماعيل بعد الفداء ..



واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان « عبد الله » أثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم (١) ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئها لاستقبال العروس ، على حين مضت هى فى ذاك اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التى استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وزفتها عروسا ..

“وأقبلت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير . وشغلها ذاك ألوداع ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلهام متجهة الى ديارها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التى خلقتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفيفة من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

وانطوت على ذاتها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما ...

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شجوب خفيف ، وتألفت فى عينيها دمعتان صافيتان ..

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ، وانظر نهاية الارب : ٥٧/١٦ .

وآدرلك « عبد الله » ما بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقتة وشيكا ، بل قادها فى رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعدت هنالك مجالس للضيوف الكرام الذين صحبوا العروس من بيتها الأول ..

وراح يريها بيتها الجديد ..

ولم يكن البيت كبيرا ضخما البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عُدّ رحبا مريحا لعروسين يبدآن حياتهما الزوجية .

كان ، كما وصفوه : (١) ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة ، فى وسطها - بميل الى الحائط الغربى - مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس ..

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتها من سيدات آل زهرة وهاشم ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نمبا ..

(١) محمد لبيب البتانونى : الرحلة الحجازية

البشرى

« وسمعت هاتفا يهتف بها فى رؤياها:
انك قد حملت بسيد هذه الأمة »

(ابن اسحاق)

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ،
و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث مثير عما رأى فى رحلته
الى كاهنة الحجاز ..

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تجد من شجن لفراق بيتها
الأول :

— هلا حدثتنى يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك
هذه ؟

فانبسط أسارىره لاقبالها عليه ، وقال يجيبها :
— ماشغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعت من تعرضهن لى ،
وانصرافى عنهن اليك وحدك ! على أن للقصة بقية لم تسمعى بها ، لأنها
حدثت فى يومنا هذا ، اذ كنت عائدا من بيت أبيك لكى أهيبء دارى
لاستقبال عروسها الغالية ، وشغلت بهذا يومى كله ، فلم أكّد أحدث
أحدا بما كان !

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

— أخاطبات جديديات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحى ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

— كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه
الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتهن فيه ما عثرف عن مثلهن
من حياء وتعفف !

وأمسك فترة يرنو الى عروسه ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث

عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضي في قصته
فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

— أجل يا ابنة وهب ! زاهدات في فتاك كأنه أُبدل خلقا جديدا . مرت
بهن اليوم في طريقي بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحن عنى بوجوههن
معرضات ، الى حد أثار عجبى وفضولى الى معرفة سر هذا الانقلاب ،
فسألت احداهن « بنت نوفل » :

« مالك لاتعرضين على اليوم ، ما كنت عرضتِ على بالأمس ؟ »
فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم
حاجة ؟ » (١)

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة :

« قد كان ذلك مرة ، فاليوم لا » (٢)

ثم أضافت : « انى والله ما أنا بصاحبة ريبة (٣) ، ولكنى رأيت فى وجهك
نورا فأردت أن يكون لى ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت
بعدى ؟ »

قلت : « زوجنى أبى آمنة بنت وهب »
فأنشدت : (٤)

لله ما زهرية سلبت

منك الذى استلبت وما تدرى !

ثم قالت فى تحسر :

ولما قضت منه « أمينة » ماقضت

نبا بصرى عنه وكل لسانى

وسألت الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟ .. فأجابت :

(١) الحوار بنصه عن « ابن اسحق » فى السيرة : ١٦٥/١

(٢) ذهب كلفتها هذه مثلا ، انظره فى مجمع الامثال للميداني : ٣٤/٢

(٣) هذه عبارة الطبرى : ١٧٤/٢ وابن الاثير ٤/٢ وفى نهاية الارب : انى والله لست
بصاحبة زينة (٦١/١٦)

(٤) انظر بقية الابيات فى تاريخ الطبرى « ١٧٤/٢ » وفى نهاية الارب : ٧٧/١٦

« مرتّ بي وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت على » ،
ودخلت على آمنة فذهبت بها »

وصمت « عبد الله » وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران في ذلك
الموقف الغريب الذي وقفته نسوة قريش من « عبد الله »
ثم كانت « آمنة » هي التي قطعت الصمت فجأة ، بأن سألت زوجها
أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « بنت نوفل »

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :
— ولماذا تسألين عن بنت نوفل دون سواها ؟

أجابت « آمنة » في جد :

— ستعرف بعد ، فهلا أعدت لي ما قالت ؟

فلم يسمع عبد الله إلا أن قال :

— سألتها : مالك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنت عرضتِ عليّ
بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذي كان معك ، فليس لي بك اليوم حاجة .
فعلقت « آمنة » بعد فترة تفكير :

— والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فهذه المرأة أخت
« ورقة بن نوفل » وهو — كما تعلم وأعلم — قد تنصر واتبع الكتب ،
وبشر بأن سيكون في هذه الأمة نبي !

ثم استطردت تقول بعد صمت قصير :

— كأنى نسيت أن فاطمة بنت مر ، قرأت الكتب كذلك ، وهى بعد
كاهنة خثعم ؟ (١)

فرنا « عبد الله » الى عروسه مليا ثم هنف :

— ترين يا آمنة أننا ..

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت في رؤيا عجيبة ملهمة
استعادت فيها كلّ الذى كانت الجزيرة تمتلئ به من شائعات وارهاسات

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ والنهاية لابن الاثير : ٤/٢

عن نبي منتظر !

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن التجلى لها ، و « عبد الله »
الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب في نور الفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة
التي يتألق بها وجهها الحلو ، وهي نائمة تحلم
حتى اذا دنا الصبح ، استيفظت العروس من نومها الهنيء واقبلت
على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضيء الدنيا من
حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض الشام . وسمعت هاتفا
يهتف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة .. » (١)

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها
عند جمهره مؤرخى الاسلام ، لم تتجاوز عشرة أيام ، اذ كان عليه أن يلحق
بالقافلة التجارية المسافرة الى غزة والشام في غير قريش .
وأغلب الظن أن كلام « بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله
الى « آمنة » قد شغل أويقات السمر في تلك الأمسيات المحدودات التى
قضاها العروسان معا قبل أن يفترقا ، وأن الرؤى قد حلفت بهما فى آفاق
عليها ، خاليتها فيها أمنية عزيزة غالية ، قلَّ من شارفها أو طمَّح اليها
ولعلمها تذكرها أيضا خير « سوداء بنت زهرة الكلاية » اذ ولدت
ورآها أبوها زرقاء فأراد وأدَّها ، فأتى الحجونَ ليدفنها هناك ، فلما حفر
لها الجافر سمع هاتفا يقول :

« لا تشد الصبية ، واخلَّها فى البرية .. »

وتكرر ذلك ، فعاد الى أبيها فقال : « ان لها لشأنا » وتركها . فكانت
كاهنة قريش . فقالت يوما لبنى زهرة : ان فيكم نذيرة أو تلد نذيرا ،
فاعرضوا على بناتكم . ففعلوا ، فقالت : لكل واحدة قولاً ظيهر بعد
حين ، حتى عرَّضت عليها آمنة فقالت : هذه النذيرة ، أو تلد نذيرا (٢)

(١) السيرة لابن هشام : ٦٦/١

(٢) الروض الانف للسهيلى : ٤١/١

العروس الأرملة

— فراق ...

— غائب لا يثوب ...

— رسول الى يثرب ..

فراق

ثم حانت ساعة الفراق !
ودبَّع « عبد الله » زوجه العروس حين أذن المؤذن برحيل القافلة ،
فتشبَّث به « آمنة » وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد
كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها اللطيفة في حنو ، وهو يظن أن الذى
بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك ..
ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف
التصبر ويتجمل بالمداراة :
— ان هى الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق
واللهفة ..

فهمست فى صوت شبه مختنق :
— وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟
أجاب متضاحكا :
— تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين
قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبدا الى أعز موضع ، ويحن الى
أحب وأجمل من خلق الله !
فتراخت يداها وأنت فى ضعف :
— ويلى يا عبد الله من ليالى الطوال !
قال وهو يخطو نحو باب البيت ، ووجهه اليها :
— لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال ليالىك روى عذاب .
أفنسيت حديث « بنت نوفل ، وفاطمة بنت مر » ورؤيا الأمس القريب ؟
واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ،

على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها الموحش ...
وأدركتها بعد ساعة ، جاريتها « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى
فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ..



ومرت أيام وليال ، و « آمنة » في فراشها لا تبرحه ، تسامر أشجانها
وترسل قلبها في أثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد
المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت
العزلة على الأُنس بالأهل والصواب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد
عليها هذه العزلة لما كانت تجده في مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت بالبادرة الأولى
للحمل ، وكان شعورها به رقيقا لطيفا حتى لتقول :
« ما شعرت أنى حامل به ولا وجدت له ثقله » كما تجد النساء ، الا أنى
أنكرت رفع حيضتى . على أنها كانت ربما ترفعنى وتعود . فأتانى آت
وأنا بين النوم واليقظة فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول :
ما أدرى . فقال : انك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها . وذلك يوم الاثنين.
فكان ذلك مما يقن عندى الحمل « (١)

وودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله »

واستعادت بعض حيويتها واشراقها ، وقد هون عليها مرارة
الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ° ، وأن كل يوم يدينها من اللقاء المنتظر ،
ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها في اللحظة
التي يؤوب فيها !

وأهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود ،

(١) شرح المواهب للزرقانى : ١٠٦/١

وقد اختلفت الروايات فى المكان الذى حملت فيه آمنة بسيد البشر ، ففى قول انها حملت با
فى شعب أبى طالب « نهاية الارب : ١٦/١٤ » وفى قول آخر انها حملت به فى بيت آله بنى
زهرة « الاستيعاب لابن عبد البر : ١٦/١ »

فتهميات « آمنة » اللقاء وشيك ، وراحت تعد ما بقى من أيام وليال ، وتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا يحدثها عما لقي في بعدها من حرّ الشوق ولهفة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه بشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراهى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه العذب ؟

بهذا شغلت « آمنة » في الفترة التى سبقت عودة القافلة ، حتى اذا لاحت طلائعها ، وقفت في ساحة الدار مما يلي الباب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب ..

وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف طارئ ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رأت « عبد الله » رأى العين ، وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !

وتناهى الى أذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقى - فى طوافه بالكعبة اثر عودته - من احتجزه حيناً ..
أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشى على مهل ، رعاية لسِنِّ أبيه ..
أو لعل .. ولعل ...

رسول الى يثرب

ثم .. أحست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهي لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدمها ، فتسمرت حيث هي ، واجمة خائفة !
لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء الجد « عبد المطلب » في صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهل الأقربين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق
وكانت « أم أيمن » تمشي في أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفي دمة أفلتت من مقلتيها ..

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :
— بعض الشجاعة يا آمنة ، فما في الأمر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا في انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو في طريقه إلينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش ..
وانعطت عقدة^١ ربطت لسان « عبد المطلب » فعقّب قائلا :
— هو ذاك يا آمنة .. وعكة بسيطة ولا شيء أكثر ، وقد قال الرفاق : « خلّفناه يثرب عند أخواله من بنى النجار » فبعثت إليه أخاه الحارث (١) ، كي يكون معه ، ويصحبه في طريقه إلينا ، فتوبى الى صبرك وادعى له ...
قالت في ضعف وتخاذل :

— أفعل يا عم !
وانصرفت من فورها الى الابتهاال والدعاء ، فلم تكد تشمر بالقوم

(١) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة ، والذي في النهاية لابن الاثير (٣/٢) ان الاخ الذي توجه الى يثرب كان الزبير ، لا الحارث

حولها ، حتى غادروها الى الكعبة ضارعين ...

وأتم الشهر الثاني دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت
 أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد
 عليها ذاك الغائب الذي افتدري بالأمس أغلى فداء ..
 وكانت تعاودها - في لحظات نومها القصيرة - رؤيا ملحّة ، عن جنين
 عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف بأجمل بشرى .. ، فاذا آبت
 الى يقظتها شق عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضي اليه بالذى
 ترى وتسمع ...

غائب لا يُثوب!

بعد حين ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ..

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين .. جميعا ..

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى النجار ، اثر رحيل القافلة التي تخلف عنها ..

ودفن هناك - على أرجح الأقوال - ولم يُقبل فيه هذه المرة أى فداء !



ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببيكاء ..
وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لاتكاد تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة : (١)

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغمام
دعته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت فى الناس مثلاً ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريريه
تعاورَ رَه أصحابه فى التراحم
فان تك غالتة المنون وريثها
فقد كان معطاء كثير التراحم

ثم أمسكت لاتزيد ..

(١) السهيلي : الروض الانف ، ١٠٧/١ - والزرقي ، المواهب : ٢١٠/١ - والنويري : نهاية الارب : ٦٦/١٦

ووجد عليه « عبد المطلب » وأخوته وأخواته وجدا شديدا (١)
ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذي غالته المنون غريبا
ولما ينزع عنه ثوب العرس .
وضحلت من النواح عليه حلوق بَحَّتْ من الهتاف له حين احتفلت
بفدائه منذ شهرين وأيام ..
كان عمره اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما (٢) ، فيا للشباب الفتى النضير
يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !
ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال في يديها خضاب
العرس !

(١) اللويرى : ٦٦/١٦

(٢) هذا هو المشهور . ونقل ابن سعد في طبعاته عن الواقدي ان سنه كانت يوم وفاته خمسا وعشرين سنة . وانظر نهاية الارب : ٦٦/١٦ والحاوي للفتاوى : ق ٢/٢٣٠

أمّ اليثيم

- الجنين ..
- الوليد ..
- الرضيع ..

الجنين

ما مضت فترة من الرسل الا
يسرت فومها بك الانبياء
فهنيئا به لآمنة الفضل
سل الذي شرفت به حواء
من لحواء انها حملت احم
سد او انها به نساء
(البوصيرى)

«وفض» الماتم ..

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيدا ييثرب ..
كانوا فى حيرة من امره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، فقيم كان الفداء ؟
من كان يظن ، حين نَحَرَت الابل المائة بالحرم ، وثركت لا يَصْد عنها
انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى ، على قيد
خطوات معدودات ؟

وفى مثل هذا ، كانت « آمنة » تفكر ، وهى فى وحدتها تجتر أحزانها ،
وتكابد الذى تجد من وطأة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها
بحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..
وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه
جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل ..

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، أن تشتد وطأة
الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبت « مكة » شهرا وبعض شهر ،
وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى الأحزان بالارملة العروس ..

حتى كانت ليلة من لىالى شوال ، أحاط فيها العواد بفراش « آمنة »
وهى فى غمرة أحزانها لا تفقا تسائل كل وافد من أهلها ووافدة :

— فيم كان فداؤه اذن ، مادام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟
 — فيم كان العرس الحافل ، ويدُّ القدر تحفر له لحدّه يشرب ؟
 ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها في حنان وقلق ،
 على أنها مالبثت أن صحت من غفوتها وقالت لمن حولها :
 — كأني عرفت سرّ الذي كان : ان عبد الله لم يفتقد من الذبح عبثا !
 لقد أمهله الله ريثما يودعني هذا الجنين الذي أحسست به اللحظة يتقلب
 في رحمى ، والذي من أجله يجب أن أعيش ..

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على « آمنة » فطوت
 أحزانها في أعماقها ، وبدأت تفكر في ابنها الذي يحيا بها ويحييها ..

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنة » قبل أن أتمهل.
 عند اختلاف الروايات في وفاة « عبد الله » :
 هل كانت والابن جنين في رحم أمه ؟
 أو كانت بعد أن وضعت ؟

لا وراء في أن المصطفى يتيم ، بنص آية الضحى : « ألم يجدك
 يتيما فآوى » والمشهور ، أنه — صلى الله عليه وسلم — ولد يتيما . وقد
 اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف فيه . قال :

« .. ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به » (١)

ونقل « ابن هشام » عبارة ابن اسحاق هذه ، من غير أن يضيف اليها
 أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا في هذا ..

ونقل « ابن الأثير » في (الكامل) أن « الزهرى » قال :

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيل
 بل كان في الشام فأقبل في غير قریش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفي .

بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم «
 كما نقل في موضع آخر أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا »
 عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخي ، مات أبوه وأمه حبلى به » (١)
 وفي نهاية الأرب : « فذهب أخوه الحارث الى يثرب فوجده قد توفي
 ودفن .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حمل » (٢)

لكن « السهيلي » نقل في (الروض الأنف) : أن « أكثر العلماء
 أجمعوا على أن عبد الله مات والرسول في المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل
 أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا » (٣)
 ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلي » هذه ، دون وقوف
 عندها ، أو تعليق عليها ..

وأشار « البرزنجي » الى الخلاف اشارة عابرة فقال :
 « ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفي بالمدينة
 المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله في مرضه عائدا من
 الشام » (٤)

وعلق « عlish » على هذا في شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية
 التي أشار اليها البرزنجي : أن أبا الرسول توفي وهو ابن سبعة أشهر ،
 وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا ..

وندع هؤلاء المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من
 قالوا ان عبد الله توفي وابنه جنين . قال بودلي :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن
 يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه في يثرب وهو في
 رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه ..

(١) الكامل : ١٣/٢

(٢) للنويري : ٦٦/٦

(٣) الروض الأنف : ١٠٧/١ - وانظر نهاية الأرب : ٦٦/١٦

(٤) المولد النبوي : ص ١٢

الذى رأى النور فى أغسطس سنة ٥٧٠ م ، بعد وفاته بشهور « (١) »
و « فيليب حتى » يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لا يشير الى
خلاف فى ذلك (٢)

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى
الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا « آمنة » حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر
الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره
أنه ولد له غلام (٣) ..

وكأننى فهمت من أستاذنا أمين الخولى أنه يميل الى الرواية القائلة بأن
محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، مستأنسا بما يطمئن اليه علم النفس
من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما
وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » - صلى الله عليه وسلم - تشهد
بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان
أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جسعا
البطل الباسل ، وهذا قد يرجح أن أمه لم تروّع وهى حامل بسوت زوجها
بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يتودها حزن ولا يعضها
شكل ولا يرهقها شجن ..

لكن هذا الترجيح يتواجه بموقف أعلام الطبقة الأولى من كتاب
السيرة ، ومن الإخباريين والمؤرخين ، لا يشيرون الى خلاف فى
أنه صلى الله عليه وسلم ولد يتيما : « ألم يجده يتيما فأوى » وانما
جاءت الإشارة الى خلاف ، عند قلة من المتأخرين . ولا يشق علينا
توجيه الرواية المشهورة ، بوفاة أبيه وهو جنين ، الى ما يهوى الراحة
النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وترملها المبكر المفجع : الجنين
نفسه ، كان عاملا هاما فى عزائها ، وشعورها به يتقلب بين أحشائها قد

(١) الرسول : ص ٢٨ من الترجمة العربية للسحار .
(٢) تاريخ العرب : ص ١٣٥ ط ثانية من الترجمة العربية
(٣) حياة محمد : ٦٩

آنس وحشة وحدتها وكآبة قمرلها ، وهون عليها ماكانت تجد من حزن لعاه كان بحيث يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ، ويملاً دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعها اياه زوجها عبد الله قبل أن يموت ، فهاشت به وله .



تسامعت بيوت « مكة » بالنبا السعيد ، فتوافدت عقائل « قرش » على دار الفقيد ، يهنئن « آمنة » ويصفين الى ماسمعت من بشرى .. وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب (١) .

وإذا كان هناك من العرب من لم يلق بالا - أول الأمر - الى هذا الذى ذاع وانتشر ، فان « آمنة » ألقت كل بالها الى تلك المبشرات فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قرش ورجالها بمجد الفداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل ، جد العرب العدنانية .. ولا غاب عن مسمعا صدى ما ذكرته أخت ورقة بن نوفل ، وفاطمة بنت مر - وقد كانت فيما روى الطبرى وابن الأثير كاهنة من خثعم - عن النور الذى انتقل من « عبد الله » اثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا .. ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن سيدات هذه البيئة ، أن يرنون الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد ..



وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عن لا يهتمون من الرواة ، ما تراءى « لآمنة » فى أحلامها من بشرى بابن عظيم ، وإن يكن « الدكتور هيكل » قد مر بها عابرا دون أن يشير اليها ، مكتفيا بقوله :

(١) من شاء ان يقرأ تفصيل ذلك : فليقرأ العمل الخاص بذكر المبشرات برسول الله ، فى الجزء السادس عشر من نهاية الارب . وفى الجزء الاول من السيرة لابن هشام : ص ١٢٧ وما بعدها

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى » (١) وأكثر المستشرقين ، يابون روايات البشرى اباء صريحا . حتى «بودلى» وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول ، رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا . قال فى كتابه (الرسول) : « لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، اذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدمه .. وانما حملته أمه ووضعتة كما تحمل كل أنثى وتضع » (٢)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من دارس مثله ، أعرف فيه الاعتدال واتزان رأى . لقد قرر أن محمدا « حملته أمه ووضعتة كما تحمل كل أنثى وتضع » فما باله ينكر عليها مايجوز على كل أنثى من البشر ، تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟ لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟ أو ليس من حقها — ككل أنثى مثلها — أن تحلم للجنين الذى يتقلب فى رحمها ، بمجد تستشرف إليه ظروفها وبيئتها ؟ لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى رؤى « آمنة » خرافات ! وانما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لجنينها بأقصى ما تطمح اليه ظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » مانعفا عزاء وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأى عجب فى أن تبعد بآمنة رؤاها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه ، بقولها : ثكلته أمه ان لم يسد الا قومه ؟ (٣)

(١) الرسول : ص ٢٥ من ترجمة السحار

(٢) حياة محمد : ص ٦٦

(٣) راجع ميون الاخبار لابن قتيبة : ٢٢٤/١

فلما ذكرهم أن « آمنة » في هذا كله ، هي حواء في كل زمان ومكان ..
دون أن نكرهم على تصديق ما تناقله رواة العرب من أخبار عما سمعت
المنجبات العربيات من هواتف البشرى بالمجد المنتظر للاجئنة في أرحامهن
كمثل ما رووا عن « ليلي بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها
« عمرو بن كلثوم » :

يا لك ليلي من ولده
يُقدم أقدام الأسد
من جشم فيه العدد
أقول قولي ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال :

انى زعيم" لك أم عمرو
بباجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبك هزبر
يسودهم في خمسة وعشر

قالوا : فساد قومك ولم يجاوز خمس عشرة سنة ..

وكذلك رووا أن أم « حاتم الطائي » أتاها الهاتف حين حملت بابنها
فسألها :

— أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة كالناس ..؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيثة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفها هتف بها في منامها
ذات ليلة :

— عشرة هدرية — جمع هادر وهو الساقط — أحب اليك ، أم ثلاثة

كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

— ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت : خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعُدت بهم احدى منجيات العرب .

وكنت بحيث أقول للمستشرق « بودلى » :

— انك قد اتخذت من كتاب السيرة والمؤرخين الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتابك عن « الرسول » ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها ، وامتنى ابلا كما يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . أنهم ليشاركونه فى كل ما فعله فهو بالنسبة لهم حى كفرد منهم ..

» لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسبة لى ، أيسر من وصف جامعى فى أكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال ..

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ..

« انى أعرف العرب عن كتب ، وانى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتهم . وأظن أنى أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتّاب السيرة على ما رأت « آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

أجل ، كنت بحيث أقول هذا ومثله ، لكنى أكتفى بأن أقول لكل من أنكروا على « بنت وهب » أحلامها ورؤاها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن وسيعرفن الهوائف والرؤى والأحلام ..

والحق أنى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتتت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام ، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله بيتتها ، ويمتد اليه أفقها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، ولدت فى جوار البيت العتيق من أم القرى ، بكل حرمتها الدينية ، وكل مالها من تراث عريق يحف به السنن والجلال . وتزوجها « عبد الله بن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، وهى يومئذ - كما يقول ابن اسحاق ، شيخ كتاب السيرة - أفضل فتاة فى قرىش نسبا وموضعا .. وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدّهن عنه لما تزوج بها فذهبت دونهن بالنور الذى رأيته على وجهه . وليكن ذلك - فى أدنى حالاته - وهما منهن أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الأول : حفيد المناقين (١) ، وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه طموحها ، ويمتد اليها أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ماتواترت به الأنباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ؟ (٢)



(١) المناقان هما : عبد مناف بن قصى بن كلاب ، الجد الثالث للرسول صلى الله عليه وسلم من ناحية أبيه ، وعبد مناف بن زهرة بن كلاب : جد أمه « آمنة بنت وهب »
(٢) السيرة : ١٦٦/١ . وانظر نهاية الارب : ٦٤/١٦

ولنعد الى « آمنة » حيث تركناها في دارها بعد أن غاب عنها « عبدالله » الى غير مأب ، وخلفها في حزن قاس ، لم تخفف وطأته عليها الا حركة الجنين في رحمها ..

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليها أن تنهأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم ان يتحرزوا في شتى الجبال والشعاب ، نخوفا من معرة الجيش الذي جاء به « أبرهة الحبشي » من اليمن ..

وكانت « آمنة » قد سمعت بقُدوم « أبرهة » هذا في جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين ..

وسألت « آمنة » الجدَّ عبد المطلب :

— علمتُ ياعم أن قريشا وكنانة وهذيل ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذي جدد على الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

— عرفوا ألا طاقة لهم بأبرهة ، فكرهوا معركة غير متكافئة ، تهلك فيها قريش ، ثم تؤوب بعار الهزيمة ..

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء كان بين شيخ مكة و طاغية الأحباش صاحب الفيل ، فعادت تسأل عما تم في ذاك اللقاء ..

فأجابها الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة ولم أسع اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حنطة الحميري » وقال له :

« سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : انى آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فان هو لم يرد حربى فائتنى به »

وجاءنى « حناطة » فأبلغنى رسالة « أبرهة » وتلقى جوابى :
 « والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه فهو بيته وحرمة ، وان يُخلر بينه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه » (١)
 قال حناطة :

— فانطلق معى ، فانه قد أمرنى أن آتیه بك ..
 ففعلتُ ، ومعى بعض رجال مكة ، وهناك مضى بى الى أبرهة أجِد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش بياك يستأذن عليك ، وهو صاحب غير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رءوس الجبال » (٢)
 فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن ترانى الحبشة معه على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال لترجمانه :
 — قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بغير أصابها لى ..
 بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، فصدّ عنى ، وقال لترجمانه فى جفوة :

— قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فىك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بغير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟
 قلت على الفور :

(١) ابن هشام : السيرة ٥٠/١
 (٢) ابن هشام : السيرة ٥١/١

— انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه .. (١)
 قال الفاجر مثلاً بقوته :
 — ماكان ليمتنع منى !
 فأجبتة متحديا :
 — أنت وذاك ..

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على « أبرهة » ثلث أموال « تهامة »
 على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبرا واكتفى بأن أمر برد ابلى الى ..
 وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة ، ثم
 قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون
 الله ، ويستنصرونه على « أبرهة » وجنده ..



وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد في
 ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة : (٢)

لاهم! ان العبد يمنع رحلته فامنع حلالك
 جروا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
 ان كنت تاركهم وكعبتنا ، فأمر ما بدا لك !

يارب لا أرجو لهم سواكا
 يا رب فامنع منهم حماكا
 ان عدو البيت من عاداكا
 امنعهمو أن يخربوا فناكا

فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سواكا

(١) الحوار بنصه عن ابن اسحق فى « السيرة ٥١/١ »
 وانظر معه تاريخ الطبرى ص ٩٤٠ من القسم الاول ط اوربا

(٢) رواه الوافدى : ان كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك
 وانظر الابيات فى (السيرة : ٥٣/١) وفى (تاريخ الطبرى : ٩٤٠/١ ط اوربا »

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها في غد من يصحبها في خروجها لتلتحق بالجمع الراحل ..

وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالى الذى تطوى عليه أحشاءها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفى غير دار أبيه « عبد الله » .

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعهما ويؤرق ليلتها ، لكنها أوت الى فراشها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها على ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره ..

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : لم لم يبعث عبد المطلب رسوله اليها ؟ وفيما هذا الصمت المريب الذى يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟

بل فيما ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟ ألا ان وراء ذلك كله لأمر ..

وظلت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة ..

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن (١) « أبرهة » كان قد نهى لدخول البلد الحرام ، وهى فيه .

(١) ارجع الى السيرة : ٥٤/١ ط الحلبي وتاريخ الطبرى : قسم اول ص ٩٤٠ ط
امدبا

وعبئى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن . فلما وجهوا الفيل من معسكره في ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه في رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محتاجن لهم في أسفل بطنه ، وهو بارك لايقوم . فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهايا للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة ، برك !

ثم كان أن سبط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير^(١) أبابيل ، فجعلتهم كعصف^(٢) مأكول .. (٣)

هنالك أدرتهم الذعر ، فولوا مدبرين يتندرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمي » - وكان قد خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، اقتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب - فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم اليه أن يدلهم على الطريق الى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته : (١)
أين المفرد والإله الطالب ؟
والأشرم المغلوب ليس الغالب !

أو يقول : (٢)

وكل القوم يسأل عن نفيل
كأن على^(٣) للحبشان ديننا !

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! » (٣)

ولم تكن أرض العرب قد شهدت - فيما روى ابن اسحاق عن يعقوب ابن عتبة - الحصبة والجدرى قبل ذاك العام المشهود ..

(٢) فيهم نزلت سورة الفيل :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . يرميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول »

(١) السيرة : ٥٥/١

(٢) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة أبيات

(٣) السيرة : ٥/١

وأقبلت «قريش» على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ،
وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

فتنكلوا عن بطن مكة انها

كانت قديما لا يرام حريمها

سائل° أمير الجيش عنها ما رأى

ولسوف ينبي الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم ينوبوا أرضهم

بل لم يعيش بعد الاياب سقيمها

وبلغت الأصدااء مسمع « آمنة » فقامت تصلى وقد أشرق وجهها بنور
اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب
لولدها - ابن عبد الله - أن يولد بعيدا عن البلد الحرام والبيت العتيق .

المولود

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وقم الزمان تبسم وذلواء
الروح والملأ الملائك حوله
للمدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى ، والسدرة العصماء
(شوقي)

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى
المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الأكثر والأشهر ، على
ما نقل « السهيلي » في الروض الأنف (١)
وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن
ذكروا أنه كان في عام الفيل (٢)

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » في صدر ليلة مقمرة من ليالي
ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه
الأمّة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :
« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه محمدا ..

وجاءها المخاض في أوان السحر من ليلة الاثنين ، وهي وحيدة في منزلها
ليس معها أحد سوى جاريتها — وقيل في رواية أخرى أن « أم عثمان بن
أبي العاص » كانت كذلك معها — فأحست ما يشهه الخوف ، لكنها مالبت
أن شعرت بنور يغمر دنياها . ثم بدا لها كأن جسا من النساء يحطن
بمضجها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات هاشم ، وعجبت كيف علمن
بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء

(١) وانظر الزرقاني ١٣٠/١ - والنوبري : ٦٨/١٦
(٢) السيرة ١٦٧/١

اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية !
فكأنما رأت فيهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر
أم اسماعيل » !

وزايلها كل ما كانت تحصسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما
كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى
من البشر !



وتوارت الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « آمنة » وحدها !
كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت
ساعة وبعض ساعة ، وهى لا تفتأ ترنو الى طلعتة البهية وكيانه اللطيف
المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ..

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى
« عبد المطلب » تبشّره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى فى حنو
على الوليد ، يملأ منه عينيه ، وقد ألقى كل سماعه الى « آمنة » وهى
تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع ..

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ،
وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا
من ابنه الفقيد عبد الله .

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة ويعوذ حفيده
منشدا : (١)

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، رواية عن الواقدي ، وانظر النويرى : ٧١/١٦ والروض
الأنف للسهيلى : ج ١

أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنان
من حاسد مضطرب العنان

ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير
ووحش الفلاة .

وكانت مكة - حين ذاعت فيها بشرى المولد - ما تزال تحتفل بما
أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم في مولد «محمد»
حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه المنحر ، ثم افتتدى بالابل
المائة ..

وبلغ من غبطة البيت الهاشمي بالمولود العزيز ، أن « ثوية الأسلمية »
جارية عمه « عبد العزى بن عبد المطلب » لم تكد توافي سيدها ببشرى
المولد ، حتى أعتقها . ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته
رؤية دوره المشئوم في الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلها بعد
أربعين عاما ، عندما جاءها وليدها الهاشمي اليتيم ، برسالة الإسلام .
وباء عبد العزى بالكنية الملعونة : « أبى لهب » (١)

فيقال ان « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته
بمسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، الا أن العذاب خفف
عنى كل ليلة اثنين ، بماء أمصته من بين اصبعي هاتين ، وذلك أنى أعتقت
« ثوية » حين بشرتنى بولادة النبی صلى الله عليه وسلم .



ولن يمضى وقت طويل ، حتى يقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك اللبلة:
الخالدة على الدهر ، ويبدأ بها كتابة عصر جديد للعرب وللإنسانية كلها ..

(١) نزل فيه قوله تعالى : « تبث يدا أبى لهب وتب » ما أغنى عنه ماله وما كسب .
سبغلى نارا ذات لهب .. وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد ..

وحتى تمتلئ الجزيرة بأخبار ومرويات عن اللحظة المباركة التي وضعت فيها « آمنة » ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل إلينا ، وقد أضافت إليها الليالي والأيام الجديدة من فيض الإلهام لرؤى المحبين وبصيرة المؤمنين ، ومن واقع التفسير التاريخي لما قرر الإسلام من مصائر عقائد ولغات وحضارات ، ودثول وشعوب ...

وكلما دار عام القمر دورته وأهل شهر ربيع الأول ، أصغى الزمان في ذكرى تلك الليلة الميمونة ، إلى هتاف الملايين من المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، يرتلون قصة « المولد » ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن ، في ضوء الواقع التاريخي :

« زيدت السماء حفظا ، ورُدَّتْ عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورُجِمَت الجن وتدلَّت إليه صلى الله عليه وسلم الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه .

وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور " أضاء قصور الشام القيصرية ، فغراها من بطاح مكة داره ومغناه .
وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذي رفع أنو شروان سمنكة وسواه .

وسقطت أربع " وعشر " من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه .
وخمكت النيران المعبودة بالمالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومحياه .. »

ويشدو المنشدون بقصائد الشعراء ، من وحي الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد :

بك بشّر الله السماء فزيت

وتضوعت مسكاً بك الغبراء

يوم يتيه على الزمان صباحه

مسأؤه بمحمد وضاء

ذعيرت عروش الظالمين فزلزلت
وعكلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم
خمدت ذوائبها وغاض الماء
والآي تترى ، والخوارق جمّة
جبريل رواح بها غدءاء ! (١)

وفي ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن
تسأل شيخها « عبد المطلب » : لِمَ عدل عن أسماء آبائه وسمّى حفيده
محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول « السهيلي » :
« لا يُعرف في العرب مَنْ تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم
الا ثلاثة ، طمع آبائهم - حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ،
وبقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولدا لهم .. وهم : محمد
ابن سفيان بن مجاشع - جد الفرزدق الشاعر - ومحمد بن أحيدة بن
الجلال .. ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا
على بعض الملوك ، وكان عنده عليم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث
النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته
حاملًا ، فنذر ان ولده له ذكر " أن يسميه محمدا .. » (٢)
ونقل البغدادي عن القاضي عياض :

« واما محمد ، فان الله تعالى حمى أن يسمى به أحد من العرب ، ولا
من غيرهم ، الى أن شاع قبل وجوده وميلاده صلى الله عليه وسلم أن نبيا
يبعث اسمه محمد ، قد قرب إبان مولده ، فسمّى قوم " من العرب أبناءهم
محمدا » (٣)

(١) من نبويات أمير الشعراء : أحمد شوقي (٢) الروض الانف : ١٠٦/١
(٣) التويرى : ٧٦/١٦

وقال أبو جعفر، محمد بن حبيب (١) : وهم ستة لاسابع لهم : محمد ابن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن حسان الجعفي ، ومحمد بن مسلمة الانصارى — ولد بعد المصطفى وقبل المبعث — ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن خزاعي السلمي «

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا في الأرض وفي السماء ..

ويعلق « بودلى » على تلك الاجابة قائلا : « .. وأيا كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمّى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذي قدر لابن آمنة من عبد الله ، أن ينشره على العالمين .. »

الرضيع

« ٠٠٠ فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد - صلى الله عليه وسلم - فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم . وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ »
« فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبي : والله اني لاكره أن أرجع من بين صواحيي ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذه »
قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ٠٠ »
(حليلة السعدية)

أحسنت « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأعظم مجد ، كما انتهت رسالة « عبد الله » منذ أن أودعه جنينا في أحشائها . فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، انى حد أكثر في صحتها ، وان لم يثقل بها الى التالف او قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يشرب ، حيث يزوران قبر فقيدهما تعالى ..
وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ويثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الخائق .
لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام . فدفعت به انى « ثوية » جارية عمه « عبد العزى » .

وكانت « ثوية » قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبدالمطلب » بلبن ابنها

مسروح (١)

(١) السيرة الحليلة : ٨٥/١ واستيعاب لابن عبد البر ٣٧٠/١ ط نهضة مصر

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قرش ، فعرض عليهن « محمد بن عبد الله » فزهدهن فيه يتمه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافئ نسبه الشريف ، فلقد مات « عبد الله » في حياة أبيه « عبد المطلب » فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته في مقتبل العمر قبل أن يتأثّل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشية « بركة أم أيمن » ، وخمسة أجمال أوراك - يعنى تأكل الأراك - وقطعة غنم (١)

وانها - كما يقول الدكتور هيكمل - لثروة " ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق ..

وشقّ على « آمنة » أن ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية ، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفال الأحياء ممن يترجى منهم الخير الوافر .

حتى إذا لم يبق أمل فى اقبال مريض على اليتيم الهاشمى ، عادت احدى المراضع تطلبه بعد أن انصرفت عنه أول النهار . وقدمت نفسها الى أم اليتيم : « حليلة بنت أبى ذؤيب السعدى ، زوج الحارث بن عبد المزى : أحد بنى سعد بن بكر بن هوزان »

وكان لهما من الولد ، الذين شرفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبد الله ، وأنيمة ، والشيماء التى كانت تحضن الرضيع المبارك مع أمها (٢) ..

ولندع « حليلة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، فيما نقل « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، عن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب » يقول :

(١) رواه ابن سعد عن الواقدي ، ونقله النويرى : ٦٧/١٦

(٢) الزرقانى : ١٤٦/١ - والنويرى : ٨١/١٦ وابن هشام (١٧٠/١)

وجاء فى شرح الواهب أن لقبها « الشماء » بغير ياء . واختلفوا فى اسمها : ففى الاسماء والروى الألف انها « حذالة » وفى رواية بها : « خدامة » وفى تاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد : « جدامة »

« كانت حليلة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته ، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتبس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تثبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء - أى عجفاء - معنا شارف لنا - أى ناقة مسنة - والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبيئنا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، وما فى ثديي ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه . ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك .. حتى قدمنا مكة تلتبس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد - رسول الله صلى الله عليه وسلم - فتأباه اذا قيل لها إنه يتيم . وذلك أننا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ .. وما عسى أن تصنع أمه وجدته ؟ .. »

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غیری ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلاأخذنه .. »

« قال : لا عليك أن تفعلی ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .. »

« فذهبت اليه فأخذه ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم قاما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا رياء وشبعا ، فبتنا بخير ليلة .. »

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلّمتى والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة ! »

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك .. »

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت محمدا عليها معى ، فوالله لقطعت »

بالركب ما يقدر عليها شيء" من حمّهم ، حتى ان صواحبى ليقلن لى :
 — يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتاّكك التى
 كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقلن : والله ان لها لشأنا ..

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله
 أجذب منها ، فكانت غنمى تروح علىّ ، حين قدمنا به معنا ، شباعاً لبناً ،
 فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان غيرنا .. قطرة لبن ، ولا يجدها فى
 ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

— ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامهم جياعا ما تبضُّ بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً
 لبناً . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه
 وفصلته » (١)

ونما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من
 أعرق قبائل العرب وأفصحها ..

كيف أمضت الأم أيامها حين كان وحيدها بعيدا عنها مع أمه الأخرى
 « حليلة » فى بادية بنى سعد ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشيء من
 ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن
 دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء ..

على أنا لسنا بحاجة الى من يثبتنا أنها أقامت فى دار « عبد الله » تنتظر
 عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله ..
 وهاجت الأحزان المطوية فى أعماقها ، وحدثها الموحشة اثر ذهاب
 ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد بمثله ابّان حملها ،

(١) ابن هشام ، السيرة : ١٧١/١

وحين كان « محمد » معها ..

ولكن أوانَ فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلّى همّها بتمثله اذ يعود فيسلا دنياها أنسا ونورا



واستبطات عودة « حليمة » بالرضيع . ولعلها همت غير مرة بأن نبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعهما العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها ، لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنمو ..

واذ أحست « حليمة » فرحة الأم بصحة الصبى العزيز ، راحت تحدثها عن جو مكة — وقد كان اذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة — و « آمنة » تلقى اليها بعض سمعها ، اذ كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد ...

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة :
— لو تركتِ ببنى عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه وبكى مكة (١)

فأنكرت الأم ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب : كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت فى استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها من حنان وإيثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمرح الى البادية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع فى جو البادية النقى ،

فتجلدت للموقف الصعب ، فى سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل .
 وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفى قلبها وحشة وشجن ..
 وانطلقت به « حليلة » راجعة الى مراعى بنى سعد ، والدنيا لا تكاد
 تسعها من فرط غبطنها وفرحها ، اذ كانت وقومها « شديدة الحرص على
 مكثه فيهم ، لما رأوه من بركته » (١)

ثم لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليلة » من تلقاء نفسها
 بالصبي المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق ..
 ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ،
 فقالت تسأل « حليلة » :
 — ما أقدمك به يا ظئرو وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه
 عندك ؟

أجابت « حليلة » بعد تردد وتفكير :

— قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى على ، وتخوفت الأحداث
 عليه ، فأدبته اليك كما تحبين (٢)
 ولم يتقنع جوابها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشيء مما خامرها من
 ريب وعجب ، فما زالت بحليلة حتى أنبأها بالخبر :
 قالت — فيما روى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :
 « فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر ، مع أخيه — من الرضاعة — لفى
 بهم لنا خلف بيوتنا ، اذ أتانا أخوه يشند ، فقال لى ولأبيه :
 — ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا ،
 فشققا بطنه ، فهما يسوطانه
 فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه . فالتزمته
 والتزمه أبوه ، فقلنا له :

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٢/١

(٢) السيرة لابن هشام : ١٧٤/١ وتهاية الادب للنويرى : ٨٤/١٦

— مالك يا بني ؟

قال :

— جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقًا بطني ، فالتمسا شيتًا لا أدري ماهو ..

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لي أبوه :

— يا حليلة ، لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب ، فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به

فاحتملناه فقدمنا به .. والله انا لا نرده الا على جدِّع أنفسنا « (١) »

أصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليلة » من حديثها ، فألقت عليها السؤال :

— أفتخوفت عليه الشيطان ؟

أجابت حليلة :

— نعم ..

فقال آمنة :

— كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبني لشأنا ، أفلا

أخبرك خبره ؟

فهتفت حليلة : بلى !

فأقبلت عليها « آمنة » تحدثها بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم

ختمت حديثها قائلة :

« .. فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخفك من حمليه ولا أيسر

منه ، ووقع حين ولدته وانه لو اضع يديه على الأرض رافع رأسه الى

السماء .. دعيه عنك وانطلقى راشدة » ..

فظهر على « حليلة » أنها تذكر شيئًا كان قد غاب عنها ، فلما

استوعبته أفضت به فقالت : « ان نفرا من نصارى الحبشة رأوا ابني

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٤/١ - ونهاية الارب : ٨٤/١٦

محمدًا معي حين رجعتُ به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوني عنه
وفحصوه مليا ثم قالوا :
— لناخذن هذا الغلام فلنذهب به الى مَلِكنا وبلدنا ، فإن له شأنًا
نحن أدري به وأعرف

فاختطفته منهم ، وقد هاجنى ذلك على رده اليك ، وهممت أن أفعل ،
لولا أن مضارب بنى سعد كانت أقرب اليّ منك ، فعدوت نحوها ،
ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلتُ به الحِمى»

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتهَا لطولِ المدى واستطردت
تقول :

وأذكر كذلك يوم انطلقتُ بولدى محمد من مكة لأول مرة ، فمر
بى اليهود فسألتهُم : ألا تحدثونى عن ابنى هذا ؟ وسردت لهم ما لقيت
من بركته . فما راعنى الا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه . ثم سألونى :
أيّيم هو ؟ قلت وأنا أشير الى زوجى : لا .. هذا أبوه وأنا أمه .
فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه ! (١)



من المؤرخين المحدثين — مستشرقين ومسلمين — مَنْ يقفون عند
قصة الملكين هذه موقف الإنكار ، فاذا ووجهوا بالذى رواه (٢) « ابن
اسحاق » عن بعض أهل العلم ، من أن المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ،
حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن
رواية الحديث ضعيفة السند ، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع
على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه
نقد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر .
فبين الروایتين — كما يقول الدكتور هيكل — تناقض صريح
ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

(١) طبقات ابن سعد : ٧١/١ بسم أول — ونهاية الارب : ٨٦/١٦
(٢) السيرة النبوية : ١٧٥/١ : ونهاية الارب للتوبرى : ٨٦/١٦

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها انسانية سامية ، وأنه لم يلجأ في اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر في خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأن ليست لهم قلوب يعلقون بها » (١)

والحق أن ضعف السند ، كان يعقينا من مثل هذا العناء في نقد المتن ، قال الحديث الذي أورده « ابن اسحاق » مروي عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحاق ، « خالد بن معدان الكلاعي » وخالد هذا هو « أبو عبد الله الشامي الحمصي » المتوفى في العقد الأول من القرن الثاني الهجري ، وقد ساق الحديث مرسلا ، لم يذكر فيه اسم الصحابي الذي رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .
والحديث خيرٌ واحد مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابي ، مُجهَّل بقول ابن اسحاق : « عن بعض أهل العلم »

واذ لم يستكمل شروط الحديث الصحيح ، لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمداً بقى في البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليلة » عادت فأخذت ظفرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة ..

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ،

وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف ما لوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو ، على ما نشهد كل يوم في جراحات الجسم ..

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنان ، هو أن القصة ، سواء أجريت على لسان الرسول أم على لسان تابعى ، فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شىء غير المعنى الحرفى للآية القرآنية : ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك » (١)

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليلة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تتصور « حليلة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين - وفيهم الدكتور هيكل - من « أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يطمئن « بودلى » الى ما روى من « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة »

(١) أنظر هنا تفسيرنا لسورة الشرح فى كتاب « التفسير البيانى للقرآن الكريم » - ط المعارف بالقاهرة - وفيه كان اطمئناننا الى أن شرح الصدر انما هو انبساطه وفتحها للابمان ، اذ أن استقرار كل مواضع ورود الصدر - أو الصدور - فى القرآن الكريم يؤكد انه لم يستعمله الا مجازيا بدلالة معنوية ، وليس بالدلالة الحسية على الجراحة

الرجيل

- سفر الى يثرب
- الوداع ..
- عودة اليتيم ..

سفر إلى يثرب

ونمضى مع « آمنة » وهى تحتضن وحيدها اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية غاية أمده ، وعادت به « حليلة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق عاد فبدد بنوره ظلال الوحشة التى كانت تغشى دنيا أمه فى وحدتها القاسية وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وتفانت « آمنة » فى رعاية ولدها الوحيد : نور حياتها وسر وجودها . ومناط أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتاب السيرة النبوية بما كان لها من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر المصطفى ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا » (١)

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » بوادر النضج المبكر ، ورأت فيه « آمنة » عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووعدت به ، فى أحلامها ورؤاها ... واطمأنت الى أن الأوان قد آن ، لكى تؤدى واجبا مفروضا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معا الى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الثاوى هناك

(١) السيرة : ١٧٧/١

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه في زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف - في الوقت نفسه - الى أخوال أبيه المقيمين .
 يثرب (١) ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاء ولعله سمع أمه غير مرة ، تقص عليه من حديث « أبي وهب بن عمرو » خال جده عبد المطلب ، أنه تصدى لقريش حين أجمعت على تجديد بناء الكعبة فقال : يا معشر قريش : « لا تملخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا .. لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس » (٢)

ولعله كذلك ، سمع منها قول الشاعر في الخال أبي وهب :

ولو بأبى وهب أنخت مطيئتي

غدت من نداه ، رحلها غير خائب

بأبيض من فرعى لوى بن غالب

إذا حصلت أنسابها في الذوائب

أبى لأخذ الضيم ، يرتاح للندي

توسَّط جداه فروع الأطايب



وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتضهر رمالها ، حين بدأت « آمنة » تنهى لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التي تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذي لم تره منذ نحو سبع سنين ..

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون في أحشاء البيداء بسهولة الموحشة وقررها المرهوب ، لكن شوقها الى زيارة يثرب ، كان أقوى من أن تغلبه عقبات سفر هو في الحقيقة قطعة من العذاب ..

(١) أم عبد المطلب بن هاشم - جد الرسول - هي سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية .
 لهذه خولة محمد - صلى الله عليه وسلم - في بنى النجار .
 انظر « السيرة : ١٧٧/١ ونسب قريش : ١٥ و « جمهرة انساب العرب : ١٢ »
 (٢) نقلها ابن اسحاق في السيرة ، وعلق عليها بقوله : « والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة المخزومي » : ٢٠٦/١

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها
بهدج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة ، تحجب الشمس عن الابن
العزیز ..

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال في رحلة
الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ، ضمت اليها ولدها ، وركبت
راحلتها ، تصحبهما الجارية الوفية : « بركة أم أيمن » (١) .

(١) طبقات ابن سعد . وانظر الزرقاني : ١/١٦٣ والتوبري : ٨٧/١٦

أَلَقْتُ « آمَنَة » نظرة وداع على دار عرسها التي جمعتها فترة بعبد الله ،
والتي وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد . ثم عرجت على الحرم فطافت
به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تنهياً
للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الراكب في أول أمره بطيئاً وثيداً كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى
الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم « مكة » خلف الجبال
الشم التي تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحشوا الخطا
قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام في ابانها ، ويعودوا الى حماهم
والى الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التي خلفوها من ورائهم ،
ويعد الابل بالراحة والظل والرى ، اذا هى سارت حشيتا فبلغت بأصحابها
مايأملون . ورجعت أرجاء البيداء صدى الحداء الحنون ، فرققت قلوب
الراحلين ، وسرت في أبدانهم نشوة من شجن الذكرى ولوعة الفراق
وعظفت « آمنة » على ولدها في حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم
باللقاء القريب !

وفي صمت الصحراء ، الا من رجع النغم ، صفت الرؤية الوجدانية لأم
محمد ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت في الحداء الى نداء شجى
يتناهى اليها من بعيد ، فهفا قلبها الى الأليف النائى ، ورنّت عيناها الى
الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو
ظلالتها الوارفة على أعز مرقد ، ويثوى ثراها الطيب أغلى رفات ..
فاذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجم الكون ، ضمت
« آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو

المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آية من مأواها البعيد المجهول ،
لتحيى الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز ا



وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها
تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء
التي بدأت تتكشف من وراء جبل « أحّد » حيث ينبسط السهل وتطمئن
الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتحنو عليها ظلال النخل الباسقات ..

وأناخ الركب رواحله في « يشرب » ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ،
ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها في
حِمى « بنى النجار » ..

لم يكد المقام يستقر بها بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أمسكت بيد وحيدها محمد ، ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتحجج الى القبر الذى حوى رفاتة ، ثم خلعت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به الى ملاعبهم ومغانيمهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم فى المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا . نفست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال

وآن لها أن تعود بولدها الى أم القرى ، مهد مولده وموطن آله وعشيرته ...

ولا يدرى أحد كيف أمضت أم محمد ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة الى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أمضتها فى مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا حان الرحيل ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم وأنس عشرتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور « عبد الله » للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حذاء ..

الوداع

واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدين ، هبت - فيما يقال - عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارئ ، مكّن له من جسمها ما كانت تجد من شجن الذكريات ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلا وعكنتها بعد أن هدأت العاصفة ..

أما « آمنة » فأحست أنه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ..

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ الصبى العزيز يجفف دمعها بيده اللطيفة ، مستمرا نشوة الحنان تكاد تنسيه رهبة الموقف ..

وفجأة .. تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها ، فراحه أن يريق عينيها يوشك أن ينطفئ ، وإن صوتها يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشجة هامة

هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال انها « نظرت لوجهه وقالت : (١) »

بارك فيك الله من غلام
يا ابن الذى من حومة الحمام
تجا بعون الملك العلام

(١) الروض الانف للسهيلى . وانظر الحاوى للفتاوى : ٢٢٢/٢
والسهم هنا : الاقداح . اشارة الى اقتداء عبد الله من النحر بمائة من الابل ، غلاة
غربوا عليها وعليه الاقداح عند الكعبة ، فخرج القدح اخيرا على الابل المائة .

فثودرى غداة الضرب بالسهم
بسائة من ابل سـوـام
ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثة همست فى حشـرجة
الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنا ميتة وذكرى
باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »
وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا ..

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حين ، صرخة صبي
مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ..
والتفت الى « أم أيمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى انطفأت ،
والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة
الى صدرها ، ولم تملك الا أن تقول دون أن تعى :

« انه الموت يابنى !

الموت ؟!

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع أمه كأس الترمـل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى
قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال ؟!

ذاك الذى يطوى الأجزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟!

ذاك الذى يمضى بالراحلين ، الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته
غاشية من الخوف والرهبة فى حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة شاحبة ..

ومد بصره المجهـد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم
كأيية غرباء ...

هنالك آب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منها يحدق فيها صامتا
عاجز الحيلة ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتغمض
العينين المنطقتين ...

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية « الأبواء » كيما
تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع
وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقها أو يبقى معها !
وعلا نحيب القوم من اشفاق وتأثر ، وخلوا بينه وبين أمه ساعة أو
بعض ساعة ، ثم نحوه عنها فى رفق ، وأضجعوها فى لحدها ..
وهالوا عليها الرمال ..

عودة اليتيم

ووجعت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادی الغبطة والتهلل والاشراق ، يعود اليها اليوم وحيدا مضاعف اليتيم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينه مشهد الموت فى أعز من له ، وبلا المأساة الفادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جناح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ..

وكذلك سوف تذكر « مكة » هذه العودة الحزينة لليتيم ، يوم يرجع اليها من دار هجرته عام الفتح ، ويدخلها ظافرا منتصرا ليحطم الأصنام التى شوهدت جلال الحرم ، ويهتف من البيت العتيق :

« الله أكبر ! »

فترجّع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال ...

الخالدة

- ذكرى باقية ..
- طيف لا يغيب ..
- عبر الأجيال ..

ذكرى باقية

« ٠٠ افزعكم بكائي ؟
« ان القبر الذى رايتمونى اناجيه ،
قبر امى آمنة بنت وهب ٠٠ »
من حديث للمصطفى
(صحيح مسلم)

الى هنا تنتهى حياة « آمنة » على هذه الأرض ، وينصرف عنها التاريخ حينما ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاما فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، أماء للنبي المصطفى ، الذى تركته وحيدا يتيمًا فى بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى ، فما بلغ مبلغ ان رجال حتى تلقى الرسالة العظمى ، واصطفاه الله خاتما للانبياء عليهم السلام .

وقد عاشت « آمنة » أول ما عاشت ، ملء قلب ولدها العظيم ، يخفق لذكرها ويرق لها حنانا وشجوا ..
تلقاه جده « عبد المطلب » بعد وفاتها ، وضمه اليه مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده ، « فكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا واذا نام فى فراشه » (١)
ذكر « الواقدي » - فيما نقله ابن سعد فى طبقاته - ان عبد المطلب كان يوضع له فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم اجلالا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيهم أعمامه أن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلا :
- دعوا ابنى ..

ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده «

وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، « فأحبه حباً شديداً ، فكان لا يفارقه ، ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه إذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابني » (١)

وكان لمحمد من حنان « فاطمة بنت أسد بن هاشم : زوج عمه أبي طالب » ثم من حب زوجه « خديجة » ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لامطمع فيه لمزيد .

لكن شيئاً من هذا كله لم ينسه ذكرى يتمه المرء ، ولم يمح من خاطره مشهد أمه الغالية وهى تموت بين يديه فى الصحراء

روى « ابن سعد » فى طبقاته ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا مر بالأبواء فى عمرة الحديبية قال : ان الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، ف قيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمته فبكيت .. (٢)

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : « خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوماً وخرجنا معه حتى انتهينا الى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى الى قبر منها فجلس اليه فناجاه طويلاً ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكياً فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ان رسول الله أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما الذى أبكاك يارسول الله فقد أبكنا وأفزعنا ؟.. فأخذ بيد عمر ثم أوماً إلينا فأتيناه فقال : أفزعكم بكائى ؟ فقلنا : نعم يا رسول الله . فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ثم قال : ان القبر الذى رأيتمونى أناجيهِ ، قبر أمى آمنة بنت وهب ، وانى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى » (٣)

(١) النهاية لابن الأثير : ١٧١/٣ والسيرة الحلبيّة : ٢/١
(٢) الطبقات الكبرى : ٧٧/١ قسم أول ، وانظر نهاية الارب ٨٧/١٦
(٣) صحيح مسلم : ١٠٦/١١ ، ١٠٨ وسنن أبى داود : ٧٥/٢٠ وانظر أخبار مكة للأزرقي

وهكذا شهدته الدنيا يلتفت أبدا إلى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه ، ويرنو إليها بقلبه على تنائي الأبعاد ..

وعرفت « قريش » منه ذلك ، وهى تعلن الحرب عليه بعد المبعث ، وعلى من آمنوا معه ، حتى أن « هند بنت عتبة » حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه إلى المدينة ليثأر لقتلى بدر ، لم تر ما تؤذى به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أقسى من نبش قبر أمه « آمنة » ، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك . رووا عن هشام بن عاصم الأسلمى أنه قال :

« لما خرجت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد فنزلوا بالأبواء ، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبى سفيان بن حرب : لو بحثمت قبر آمنة أم محمد فانه بالأبواء ، فإن أسير أحد منكم افتديتم كل انسان بأرب من آرابها ١٩ » (١)

لكن أبى سفيان لم يكذب يذكر ذلك لقريش ، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ ، فصاحت بالرجل : « لا تفتح علينا هذا الباب » وكأنما روعها تمثل غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء ١

وانصرفت قريش عن الأبواء دون أن تجرؤ على العبث بعمرمة القبر الذى استودعه الصبى اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من أربعين سنة ، ثم لم ينسها بعد ذلك أبدا ..

ولم تنسه الأحداث الكبار ، على كثر الفداة ومر العشى ، ذكريات أيامه الخوالى فى حضن أمته الغالية ، ومشاهد رحلته الأولى معها إلى يثرب ، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئا منها . فعندما هاجر إلى المدينة ، مضى يطوف بالربوع التى شهدته - قبل نحو نصف قرن - صبيا خالى البال ، ويستعيد ما كان له من مواقف هناك . حدثوا أنه

(١) تاريخ مكة للأزدى : ٨٤١ - وانظر السيوطى فى « الحاوى » ص ٢٣٣ ج ٢ والارب ، بكسر الهمزة : العضو

صلى الله عليه وسلم لما رأى حى بنى عدى بن النجار قال :
 « ها هنا نزلت بى أُمى .. وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله » (١)
 ونظر الى أطم بنى عدى ، فرق قلبه وهو يقول :
 « كنت أَلعب مع أنيسة - جارية من الأنصار - على هذا الأطم ، وكنت
 مع غلمان من أخوالى . وأحسنتُ العوم فى بئر بنى عدى بن النجار »

كلا ، لم ينس محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأيام الخوالى ، كما لم
 ينس الدار التى شهدت مولده ، وقد أغلقت أبوابها بعد موت أمه ،
 وتكرت خلاء ..

وربما مر بها بين الحين والحين - أيام شبابيه فى مكة - فوقف يسألها
 عما فعلت بها الأيام ، ويتملى ذكرى مشهد أمه حين كانت هناك ..



ولقد هاجر من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد اليها يوم الفتح وعلم
 أن دار مولده أخذها عقيل ابن عمه أبى طالب ، كره صلى الله عليه وسلم
 أن يستردها منه ، كما كره للمهاجرين أن يرجعوا فى شىء من أموالهم
 أخذ منهم فى الله تعالى ، وهجروه لله (٢)

فبقى بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه «محمد بن يوسف»
 فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء ، فلم يزل كذلك الى أن حجت
 « الخيزران » - أم الخليفتين موسى وهارون - فجعلته مسجدا للصلاة ،
 وأشرعته فى الزقاق الذى يقال له « زقاق المولد » فحدثوا أن أهله كانوا
 يقولون بعد أن نقلوا منه :

- والله ما أصابتنا فيه جائحة ولا حاجة ، حتى أخرجنا منه فاشتد
 الزمان علينا (٣)

(١) ابن مسعود ، الطبقات الكبرى : ٧٧/١ - قسم أول .

(٢) أخبار مكة للأزدى : ٤٥٧

(٣) النهاية لابن الأثير : ١٨٦/١ - والروض الأنف للسيلى : ١٠٧/١ - وأخبار مكة

للأزدى : ٤٤٦

طيف لا يغيب

« انى لأقوم فى الصلاة اريد أن
أطول فيها ، فاسمع بكاء الصبي سانجون
فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه »

(حديث شريف)

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته
الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك
يُصطفى للنبوّة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة ، ضد الوثنية والشرك
والضلال ..

ولقد بقى طيفها الغالى يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكرها تراوحه حينما
ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعرق عواطف البر والرحمة ، وترتفع
بالأمومة عنده الى المقام الأسنى الذى لا يطاوله مقام ..

ذكرها فى مريضه الأولى «ثوية» مولاة أبى لهب ، فكان صلى الله عليه
وسلم يَصِلُها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها . فلما هاجر
الى المدينة ظل يبعث اليها بصلة وكسوة ، الى أن جاءه خبر وفاتها سنة
سبع ، عند مرجعه من خيبر ، فلما دخل مكة ظافرا بعد ذلك بعام ، لم
ينس فى غبطته بالفتح الأكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح ؟
ف قيل له : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد (١)

وكذلك فعل مع « أم أيمن » حاضنته الحبشية التى رافقته وأمه فى
رحلتها الى يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالأبواء ، فعاش صلى الله عليه
وسلم لا يرى « أم أيمن » حتى يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :

(١) الروض الانف : ٩/٢ - ونهاية العرب : ٨١/١٦

« هي أمي بعد أمي » (١)



وكان بره بمرضعه « حليلة السعدية » صدى لما يعمر قلبه الكريم من حب للأُمومة في أي صورة من صورها . حدثوا عن « أبي الطفيل » أنه قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور ، اذ أقبلت امرأة دنت الى النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقلت : من هي ؟ فقالوا : هذه أمه التي أرضعته » (٢)

وفي غزوة حنين ، بعد فتح مكة ، جىء الرسول صلى الله عليه وسلم بسبى سبى هوزان : ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومالا يدرى ما عِدَّتُهُ من الابل والشاه ، فأتاه وفد هوزان — ممن أسلموا — فقال قائلهم :

« يا رسول الله ، انما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك » — وكانت حليلة من بنى سعد بن بكر من هوزان .. فلمست ضراعتهم قلبه الكبير ، واستجاب لمن استشفعوا بالأم التي أرضعته ، فقال لوفد هوزان ، وطيف أمته « آمنة » بباركه :

« أمنا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . واذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله ، في أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .. » فلما صلى رسول الله بالناس الظهر ، قام رجال هوزان فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

— أمنا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

فقال المهاجرون :

— وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وقالت الأنصار :

(١) أَمْ رَوْضُ الْأَنْف : ٧٩/٢
(٢) رواه أبو داود في سننه : ١١٩/٤

— وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..
واذ رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل ، مثل تميم وفزارة ،
قال :

— أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي ، فله بكل انسانٍ سِتْرٌ
فرائضٍ من أول غنمٍ أصيبه ..
فردوا الى هوزان أبناءها ونساءها (١)
لأن فيهن حواضن الرسول وعماته وخالاته من الرضاعة ..

وتمثل صلى الله عليه وسلم أمه « آمنة » في « فاطمة بنت أسد .
ابن هاشم بن عبد مناف » تلك التي رعته أيام صباه في بيت عمه أبي.
طالب ، وكانت له من بعد أمه أما . ذكر « ابن سعد » في طبقاته ،
و « ابن هشام » في السيرة ، و « أبو الفرج الأصبهاني » في مقاتل
الطالبين ، عن ابن عباس أنه قال :

« لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب ، ألبسها رسول الله صلى الله عليه
وسلم قميصه ، واضطجع معها في قبرها ، فقال له أصحابه : ما رأيناك
صنعتَ بأحد ما صنعتَ بها . فقال : انه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب .
أبرئ بي منها . اني انما ألبستها قميصي لتكسى حثكل الجنة ، واضطجعت
معه في قبرها ليهون عليها » (٢)

وكذلك رأى ملامح من أمه الراحلة ، في زوجه الرؤوم خديجة رضى الله
عنها ، تلك التي سكن اليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره الى أن
لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين ، لم يستبدل بها سواها ولا ضمَّ
اليها زوجة غيرها ، ولا نسي لها طولَ عمره ، ما عوضته من حنان
الأمومة الذي افتقده منذ ودَّع أمه في الأبواء ..

(١) السيرة : ١٢١/٤

(٢) الاصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٨ ، ٩ ط الحلبي وانظر الاستيعاب ، الجزء الثامن

ذكر محمد صلى الله عليه وسلم أمه في كل هؤلاء ..

وتمثلها في بناته حين كبرن وصرن أمهات ، ورأى صورتها في كل أم*
تحنو على ولدها ، فما عُرِف عنه انه صلى الله عليه وسلم كان يفعل بمثل
تلك العاطفة الغامرة التي كان يجدها أمام مشهد الأمومة ، حتى لقد عز
عليه أن يجد ما يُمثِّل به لأصحابه رحمة الله بعباده ، أقوى من حنو
الأم .. حدثوا أن سببا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا
امرأة منهم قد تحلب ثديها ، اذا وجدت صبيا من السبي أخذته فالصقته
ببطنها وأرضعته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أترون هذه
طارحة ولدها في النار ؟ .. أجابوا : لا ، وهى تقدر ألا تطرحه : فقال :
الله أرحم بعباده من هذه بولدها »

وما أرتاب في أنه صلى الله عليه وسلم ، كان عامر القلب بذكرى أمه ،
حين ارتقى بالأمومة الى ما فوق البشرية ، فوضع الجنة تحت أقدامها
وجعل البرّ بها مقدما على شرف الجهاد في سبيل الله والدار الآخرة ، (١)
اذ جاءه « معاوية بن جاهمة السلمى » يستأذنه في الخروج للجهاد ابتغاء
وجه الله واليوم الآخر ، فلما سأله الرسول : أحيّة أمك ؟ وقال : نعم ،
أمره أن يرجع اليها فيبرها

وعاود معاوية استئذانه في الخروج للجهاد ، فأعاد الرسول سؤاله عن
أمه ، ثم أمره أن يرجع اليها فيبرها
فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يُلح في الظفر بمثوبة الجهاد ،
كرر الرسول سؤاله : أحيّة أمك ؟

قال : نعم ..

فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن قال : ويحك ! الزم رجلك
فَسَمِّ الْجَنَّة !

وان الانسانية لتصغى اليوم ، وغدا ، الى قول الرسول الكريم :

(١) راجع « تقديم بر الوالدين على الجهاد » في « الجهاد » بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤

« انى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطوّل فيها ، فأسمع بكاء الصبى
فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه » (١) فلا يغيّب عنها أن تلمح
طيف « آمنة بنت وهب » ملء ذلك القلب الكبير الذى نبض بأسمى
ما تعرف البشرية من عاطفة البر بالأمومة وتكريمها ..
وأى مطمح للبشرية اذ تتسامى بالأم ، واهبة الحياة ، وراء الذى يقال
من حديث ابن آمنة ، المصطفى بشرا رسولا :
« لو كنت أدركت والدى أو أحدهما وأنا فى صلاة العشاء ، وقد
قرأت فاتحة الكتاب ، تنادى : يا محمد ، لأجبتها : لبيك » (٢)

(١) صحيح البخارى : ٦٥/١٠

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، بسند فيه يس بن معاذ ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف . وانظر السيوطى فى « الحاوى » ج ٢/٢٢٣

عبر الأجيال

تتباهى بك العصور وتسمو
بك علباء بعدها علباء
فهنيئاً به لأمنة الفضل
ل الذى شرفت به حواء !
(البوصيرى)

ولقد ثوى المصطفى بعد أن أدى رسالته ، فى ثرى « يثرب » كما
نوى أبوه من ذبل ، وآب الى المصير الذى يثوب اليه كل حى : « وما
محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ولكنه عاش ملء الحياة فى
حساب الانسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ،
وستظل الدنيا أبدا خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكده يهتف
هتافه الخالد : الله أكبر ، حتى هوى النسر الرومانى وانطفأت نار المجوسية
وتصدعت صروح الوثنية « واذا العرب الجفافة البداة الذين لم يكونوا
يخرجون من جزييرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا
النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الفراعين والأكاسرة وتيجان الابطاطرة
والقياصرة ، ثم يندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمدية أسوار الصين
وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحل بحر الظلمات ليشيدوا لدينهم
دولة اسلامية فى أسبانيا ، معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغزون السير
شمالا حتى يقرعوا أبواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات
السلطان فى قلب أوروبا .

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى أمام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته
أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ،
ويذوق مرارة اليتيم ولوعة الشكل ، ويحب ، ويتزوج ، ويلد ويموت ،
شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يوجّه تاريخ البشرية كلها منذ مطلع

القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة ،
ما كانت لتعرف شيئا عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء ، أو تحس وجودا
لأهلها الذين ينتقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية ..

وهذا « كيتانى » الذى ولد وشب فى جوار الفاتيكان وحمى القديس
بطرس ، يشد رحاله الى بلاد العرب فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ،
لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى
حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ..

وهذا مستشرق آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن
المعجزة التى جعلت من ابن « آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال
كما وصفه « كارليل » ، رغم كونه النبی الأوحى بين أنبياء العالم ، الذى
ولد فى ضوء التاريخ الكامل ، ولم يأت بمعجزة غير كتاب عربى مبين ،
يُصِرُّ على بشرته ، ويُنحَى عنه كلِّ ما حَفَّ بابن مريم قبله من قداسة
وألوهية ..

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعده ، يغدو سلوكه اليومي
— كما يقول هوجارت — سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور البسيطة ،
القانون الذى يراعاه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين وإيمان
الى أيامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف
الجنس البشرى ، المثل الكامل للإنسان ، فقلَّدت أفعاله بتمام الدقة ،
كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته آمنة بنت وهب كما تضع كل
أنثى من البشر » فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم
عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى زيارة قبر أبيه فى
يُشرب ، ثم ... خَلَفَتْه وحيدا فى الطريق الى مكة !

ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسد الساكن ، تلك الحفرة النائية فى صحراء الحجاز ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا خالدا يقهر الزمن ويغلب الفناء .

ولا أحست وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة آمنة ، نبيا رسولا ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيّل اليهم أن الجين تنوح عليها منشدة (١) :

نبكى الفتاة البرّة الأمينه
ذات الجمال ، العفة الرزينة
زوجة عبد الله والقرينه
أمّ نبى الله ذى السكينة
لو فوديت لفوديت ثمينه
وللمنايا شفرة سمينه
لا تثقين ظاعنا ولا ظعينه
الا أتت ، وقطعت وتينه

ولم يتقدر أحد ممن شهدوا رقدتها فى مضجعها الأخير بالأبواء ، أن سوف يأتى حين من الدهر تبعث فيه ذكرى الراقدة ملء الحياة ، سم لا يموت لها ذكر من بعد ذلك أبدا ، بل تظل صورتها تنتقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء ، ويظل اسمها خالدا على مر العصور والأدهار ، يحف به جلال أمومتها العظمى التى لبثت - وسوف تلبث دائما - تستشير أنبل مافى وجدان المؤمنين من انفعال ، وتلهم شعراءهم روائع القصيد ، وهذه الدنيا تصفى فى الليلة المباركة من ربيع كل عام هجرى ، الى هتاف المحتفلين بذكرى ليلة المولد التى قامت فيها « آمنة » عن ولدها المصطفى سيد البشر :

(١) رواء السهلى فى الروض الانف ، ونقله السيوطى فى الحارى للفنارى : ٣٢٢

كيف ترقى رقيك الأنبياءُ
 يا سماءُ ما طاولتها سماءُ
 لم يساووك في علاكٍ وقد حا
 ل سنى منك دونهم وسماء
 انما مثلوا صفاتك للناس
 س كما مثل النجوم الماءُ
 تتباهى بك العصورُ وتسمو
 بكُ علياء بعدها علياء
 فهنئنا به لآمنة الفضل
 لـ الذى شرفت به حواء
 يوم نالت بوضعه ابنة وهب
 من فخار مالم تنله النساء (١)

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، ووالدة النبی المصطفى المبعوث
 خاتما للأنبياء ..

(١) من همزية البوصري ؛ انظرها في ديوانه

فهرس

صفحة

مناجاة	٥
١ - سيدة الأمهات :	
هذه السيرة ومصادرها	٩
أنوثة وأمومة	١٣
أمهات الأنبياء	٢٦
٢ - بيئة ووراثة :	
البيت العتيق	٤٥
بنو زهرة	٥٩
٣ - زهرة قریش :	
فتاة زهرة	٦٧
فتى هاشم	٦٩
العرس	٧٧
البشرى	٨٥
٤ - العروس الأرملة :	
فراق	٩١

٩٥	رسول إلى يثرب
٩٧	غائب لا يثوب

٥ - أم اليتيم :

١٠١	الجنين
١٠٧	الوليد
١٢٣	الرضيع

٦ - الرحيل :

١٣٥	سفر إلى يثرب
١٤١	الوداع
١٤٤	عودة اليتيم

٧ - الخالدة :

١٤٧	ذكرى باقية
١٥١	طيف لا يغيب
١٥٦	عبر الأجيال



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
 مكتبة الإسكندرية العامة

طبع بمطابع دار الهلال
 الطبعة السادسة - طبعة مزيّدة منقحة : ١٩٧٢

